شيخ الإسلام

أبو العباس أحمد بن تيمية

مفرج الكروب

حققه وخرج أحاديثه

مصطفى عبد القادر عطا

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت ٣٩١١٣٤٧

مفرج الكروب

شيخ الإسلام
أبو العباس أحمد بن تيمية

اعتنى به وخرّج أحاديثه
مصطفى عبد القادر عطا

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت . ٣٩٣١٣٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

هذا الكتاب هو أحد الأسئلة التى وجهت للإمام ابن تيمية، ويقع ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية المطبوع.

وقد توفر لى أثناء تحقيق هذا الكتاب ثلاث نسخ ، هى:

١ـ النسخة المطبوعة ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية والتى تقع فى ٣٧ جزء جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى وابنه محمد رحمهما الله ، ويقع هذا الكتاب فى الجزء العاشر منه (١٠/٢٣٧ : ٣٣٦). وقد رمزت لها بالرمز (ب)

٢ـ النسخة المطبوعة ضمن مجموعة الفتاوى الكبرى والتى تقع فى ٥ مجلدات، تقديم الشيخ حسنين محمد مخلوف المفتى السابق، ويقع هذا الكتاب فى الجزء الثانى منه (٢/٣٠٤:٣٦١) وقد رمزت لها بالرمز (أ)

٣ـ النسخة المطبوعة بالدار السلفية ببومباى الهند والتى عثرت عليها أثناء عملى بالكتاب، فآثرت أن أقارنها بالنسختين السابقتين، وإثبات الاختلافات والسقطات الواردة بهم.

وبعد أن عقدت مقارنة دقيقة بين النسخ الثلاث وأثبت الاختلافات بينهم، قمت بوضع بعض العناوين الموضحة وليعلم القارىء الكريم أن جميع ما وضع من عناوين هى من عملى سوى كلمة «فصل»

وقمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة على كتب السنة المعتمدة والتى توفرت لى مع إيراد كلام العلماء فى مرتبة الحديث كلما أمكننى ذلك

وقمت بتخريج الآيات القرآنية الكريمة على المصحف الشريف وإثبات أرقام الآيات فى كل سورة ، مع ضبط كلماتها

والله أدعو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين فى كل مكان ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصطفى عبد القادر عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن قول النبي ﷺ « دعوة أخي ذي النون: ﴿ لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته »(١)

ما معنى هذه الدعوة ؟

ولم كانت كاشفة للكرب ؟

وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟

وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها، حتى يوجب كشف ضره؟

وما مناسبة ذكره: ﴿ اني كنت من الظالمين ﴾ مع التوحيد(٢)

[وهل مجرد الاعتراف بالظلم مع التوحيد يوجب كشف الضر](٣)

---

(١) حديث : « دعوة أخي ذي النون: لا إله إلا أنت ... » أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات رقم ٣٥٠٥ . والإمام أحمد في المسند ١/١٧٠ . والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم ٦٥٥ من طريق ضعيف ، وبرقم ٦٥٦ . وأبو يعلى في مسنده برقم ٧٧٢ . والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٥ ، ٢/٣٨٣ . وابن السني في «عمل اليوم والليلة » برقم ٣٤٥ . والطبري في تفسيره ١٧/٨٢ . والبيهقي في « شعب الإيمان » برقم ٦١١

(٢) في ب ، ج : « مع أن التوحيد يوجب كشف الضّر »

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من ب ، ج . ومثبت في أ .

وهل يكفيه اعترافه أم لا بد من التوبة والعزم فى المستقبل ؟

وما هو السر فى أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

وما الحيلة فى انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ، ما السبب المعين على ذلك؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين.

لفظ « الدعاء، والدعوة » فى القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

قال الله تعالى: ﴿ فلا تدع مع الله إلهًا آخر فتكون من المعذبين ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ (٥)

وقال تعالى: ﴿ ولا تدع مع الله إلهًا آخر. لا إله إلا هو ﴾(٦)

وقال: ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا. ﴾(٧)

وقال : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثًا وإن يدعون الا شيطانًا مريدًا ﴾ (٨)

---

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢١٣ .

(٥) سورة المؤمنون الآية : ١١٧ .

(٦) سورة القصص الآية : ٨٨ .

(٧) سورة الجن الآية : ١٩ .

(٨) سورة النساء الآية : ١١٧ .

وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ (٩)

وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (١٠)

وقال فى آخر السورة ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾(١١)

قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل: لولا دعاؤه إياكم . فإن المصدر يضاف الى الفاعل تارة. والى المفعول تارة، ولكن إضافته الى الفاعل أقوى ، لأنه لا بد له من فاعل ، فلهذا كان هذا أقوى القولين:

أى مايعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه:

﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزامًا ﴾(١٢) أى : عذاب لازم للمكذبين

ولفظ « الصلاة » فى اللغة أصله: الدعاء ، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء ، وهو العبادة والمسألة .

قد فسر قوله تعالى: ﴿ أدعونى أستجب لكم ﴾(١٣) بالوجهين، قيل : اعبدونى وامتثلوا أمرى أستجب لكم .

---

(٩) سورة الرعد الآية : ١٤

(١٠) سورة الفرقان الآية : ٦٨ .

(١١) سورة الفرقان الآية : ٧٧ .

(١٢) سورة الفرقان الآية : ٧٧ .

(١٣) سورة غافر الآية : ٦٠ .

كما قال تعالى: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾(١٤)

أى : يستجيب لهم ، وهو معروف فى اللغة ، ويقال: استجابه واستجاب له، كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقيل : سلونى أعطكم.

وفى الصحيحين : عن النبى ﷺ أنه قال :

« ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » (١٥)

فذكر أولاً لفظ الدعاء، ثم ذكر السؤال والاستغفار ، والمستغفر سائل كما أن السائل داع، لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل

---

(١٤) سورة الشورى الآية : ٢٦ .

(١٥) حديث «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا ...» أخرجه البخارى فى صحيحه، فى كتاب التوحيد، وفى الدعوات، والتهجد ١٩٧/٨، ١٤٩/٧، ٤٧/٢. وأخرجه مسلم فى صحيحه ، صلاة المسافرين برقم ٧٥٨. وأبو داود فى سننه برقم ١٣١٥ ، ٤٧٣٣. والترمذى فى سننه برقم ٣٤٩٨. والإمام أحمد ٢٦٤/٢ ، ٢٦٧، وابن ماجة فى سننه برقم ١٣٦٦ ، ومالك فى الموطأ برقم ٢١٤. والبيهقى فى السنن الكبرى ٢/٣ ، وفى الأسماء والصفات ٥٦٥. والدارمى فى سننه ٣٤٧. والمنذرى فى الترغيب والترهيب ٤٨٩/٢ . والبغوى فى شرح السنة ١٦٩/١. وانظر : اتحاف السادة المتقين ١٠٥/٢ .

الطالب للخير، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعى الذى يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام. وقال تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[16]

وكل سائل راغب راهب فهو[17] عابد للمسئول ، وكل عابد له فهو أيضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل عابد فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذى يطلِبُ جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب . ويراد بالعابد: مَنْ يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن فى ذلك صيغ[18] سؤال.

والعابد الذى يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضاً راج خائف ، راغب راهب يرغب فى حصول مراده ، ويرهب من فواته.

قال تعالى: ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا ﴾[19]

وقال تعالى: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾[20]

ولا يتصور أن يخلو داع لله ــ دعاء عبادة أو دعاء مسألة ــ من الرغب والرهب، من الخوف والطمع.

---

(١٦) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .
(١٧) فى أ « وهو » .
(١٨) فى أ « صنيع » .
(١٩) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٠ .
(٢٠) سورة السجدة، الآية : ١٦ .

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة، فهذا قد يفسر مراده بأن المقربين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه. وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم.

ومن قال من هؤلاء : « لم أعبدك شوقًا الى جنتك ولا خوفًا من نارك »

فهو (٢١) يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر اليه هو من الجنة ، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار .

ولما سأل بعض أصحابه عما يقول فى صلاته قال :

إنى أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال : « حولها نُدَنْدِنْ »(٢٢)

---

(٢١) فى أ « فهذا »

(٢٢) حديث « إنى أسأل الله الجنة وأعوذ... » أخرجه أبو داود فى سننه، باب ١٢ من استفتاح الصلاة . وابن ماجة فى سننه برقم ٥٩١٠، ٣٨٤٧ . والإمام أحمد فى المسند ٤٧٤/٣ . وابن حبان فى صحيحه ٥١٤ (موارد الظمآن) . وابن خزيمة فى صحيحه برقم ٧٢٥ . وأورده النووى فى الأذكار ٦٥. والعجلونى فى كشف الخفا ٤٤٠/١. والصنعانى فى سبل السلام برقم ٣٠٠ .

وقد أنكر على من قال هذا الكلام يعنى : أسألك لذة النظر إلى وجهك (٢٣) فريق من أهل الكلام ، ظنوا أن الله لا يتلذذ بالنظر اليه ، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق. فغلط هؤلاء فى معنى الجنة كما غلط أولئك ، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يطلب ، وهؤلاء أنكروا ذلك .

وأما التألم بالنار فهو أمر ضرورى ، ومن قال : لو أدخلنى النار لكنت راضياً ، فهو عزم منه على الرضا ، والعزائم قد تنفسخ (٢٤) عند وجود الحقائق .

ومثل هذا يقع فى كلام طائفة مثل سمنون (٢٥) الذى قال :

وَلَيس لى فى سِواكَ حَظٌّ فكيفَ مَا شئْتَ فَامتحنّى

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

قال تعالى : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون ﴾ (٢٦) .

(٢٣) جزء من حديث أخرجه الحاكم فى المستدرك ٥٢٤/١ ، وصححه وأقره الذهبى . وأخرجه النسائى فى سننه ٥٤/٣ ، ٥٥ . والإمام أحمد فى المسند ٢٦٤/٤ .

(٢٤) فى ج : « تنسخ » .

(٢٥) سمنون بن حمزة الخواص ، أبو الحسن ، أو أبو بكر ، صوفى ناسك من الشعراء ، له مقطوعات غاية فى الجودة ، وهو من أهل البصرة، سكن بغداد وتوفى بها سنة ٢٩٠ هـ (الأعلام ٣/ ١٤٠. معاهد التنصيص ١/ ٣٨٨ . ومعجم البلدان ١/ ٨٦ . وتاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ٢٦٩ : ٢٧٣) .

(٢٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٣ .

وبعض من تكلم فى علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وأن من شهد القدر فشهد توحيد الأفعال، حتى فنى من لم يكن ، وبقى من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعاً.

أما الحقيقة : فإن الحى لا يتصور أن لا يكون حساساً محباً لما يلائمه، مبغضاً لما ينافره .

ومن قال أن الحى يستوى عنده جميع المقدورات فهو أحد رجلين :

إما انه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل .

وإما أنه مكابر معاند .

ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله ـ سواء سمى اصطلاماً أو محواً أو فناء، أو غشياً أو ضعفاً ـ فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية ، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره ، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها .

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل الى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً ، فإنه غالط ، بل لا بد من الفرق (٢٧) ، فإنه أمر ضرورى .

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعى بقى فى الفرق الطبعى ، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه.

ولهذا لما وقعت هذه المسألة بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم الفرق الثانى، وهو : أن يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله

(٢٧) فى ج « لا بد من الفرق » .

وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد [٢٨] الفرق فى القدر الجامع، ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج[٢٩] عن دين الإسلام.

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعى بالكلية ، وإن خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار ، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون الى هذا الإلحاد ، بل يفرقون من وجه دون وجه ، فيطيعون الله ورسوله تارة ، ويعصون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من أهل القبلة .

وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع.

والمقصود هنا : أن لفظ « الدعوة » و« الدعاء » يتناول هذا وهذا.

وقال الله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٣٠]

وفى الحديث: « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه ابن ماجة ، وابن أبى الدنيا [٣١]

---

(٢٨) فى أ « فشهد »

(٢٩) فى أ « والإ خرج »

(٣٠) سورة يونس ، الآية : ١٠ .

(٣١) حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله ... » أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤٩٨/١. والترمذى فى سننه برقم ٣٣٨٣. وابن ماجة في سننه برقم ٣٨٠٠، وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر برقم ١٠٢. وابن حبان فى صحيحه برقم ٢٣٢٦ (موارد الظمآن)، والنسائى فى عمل اليوم والليلة برقم ١٠٢ .

وقال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره:

« دعوة أخى ذى النون ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته »(٣٢)

سمّاها « دعوة » لأنها تتضمن نوعى الدعاء . فقوله ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ اعتراف بتوحيد الإلهية. وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعى الدعاء ، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله إلا هو .

معنى: ﴿ إنى كنت من الظالمين ﴾

وقوله : ﴿ إنى كنت من الظالمين ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر ، إما بوصف حاله ، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين .

كقول نوح عليه السلام:

﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم و إلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ (٣٣)

فهذا ليس صيغة طلب، وانما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام:

---

(٣٢) سبق تخريجه

(٣٣) سورة هود ، الآية : ٤٧ .

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾(٣٤)

هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾(٣٥)

فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو يتضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه.

وقد روى الترمذى وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « **من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** ». رواه الترمذى وقال: حديث حسن(٣٦)

ورواه مالك بن الحويرث وقال : « **من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** »(٣٧) وأظن البيهقى رواه مرفوعاً بهذا اللفظ، وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله :

« **أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له**

---

(٣٤) سورة الأعراف ، الآية : ٢٣ .

(٣٥) سورة القصص ، الآية : ٢٤ .

(٣٦) حديث « من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ... » أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٢٩٢٦ عن أبى سعيد . والدارمى فى سننه ٨٣٧، والبخارى فى خلق أفعال العباد ٦٩ . وفى التاريخ الكبير ٢/٢/ ٣٠٨ وأخطأ ابن الجوزى وأورده فى الموضوعات ١٦٥/٣ ، وتعقبه السيوطى فى اللآلىء المصنوعة ٣٤٢/٢ .

(٣٧) حديث « من شغله ذكرى عن مسألتى .. » أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » برقم ٥٦٧ . وفى الاعتقاد ص ٤٩. وفى الاسماء والصفات ص ٣٠٧ .

الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير »(٣٨)

فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبى الصلت يمدح ابن جدعان :

ءأذكر حاجتى أم قد كفانى حباؤك ؟ إن شيمتك الحباء
اذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

قال : فهذا (٣٩) مخلوق يخاطب مخلوقاً فكيف بالخالق تعالى ؟

ومن هذا الباب: الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام

« اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان »(٤٠)

فهذا خبر يتضمن السؤال.

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام : ﴿ أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ (٤١)

---

(٣٨) حديث : «أفضل الدعاء يوم عرفة ...» أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٣٥٨٥. والبيهقى فى السنن الكبرى ١١٧/٥، وفى «شعب الإيمان» برقم ٥٧٠. وابن أبى شيبة فى المصنف ٣٧٤/١٠. ومالك فى الموطأ ٢١٤ ، ٤٢٢ .

(٣٩) فى ج : « فدذا » .

(٤٠) حديث : «اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكي .....» أخرجه الطبرانى فى الصغير ١٢٢/١ وكذلك فى الأوسط عن ابن مسعود، وأورده الهيثمي فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٣ ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وفيه من لم أعرفهم » . وكذلك أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ٦١٨/٢ .

(٤١) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٣ .

فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره، وهى صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب فى السؤال والدعاء

فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه : أنا جائع ، أنا مريض . حسن أدب فى السؤال .

وإن كان فى قوله : أطعمنى . وداونى، ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب ، طلب جازم من المسؤول ؛ فذاك فيه إظهار حاله وإخباره(٤٢) على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب

وهذه الصيغة ـ صيغة الطلب والاستدعاء ـ إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب ، أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فإنها تقال على وجه الأمر : إما لما فى ذلك من حاجة الطالب ، وإما لما فيه من نفع المطلوب .

فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغنى من كل وجه فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار وإظهار الحال.

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثانى ، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به

---

(٤٢) فى ج « وإخبار » .

باللفظ ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسئول ، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والإجابة ويتضمن القصد والطلب الذى هو نفس السؤال فيتضمن السؤال والمقتضى له والإجابة كقول (٤٣) النبى ﷺ لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما قال له: علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، فقال: « **قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم** » أخرجاه فى الصحيحين(٤٤)

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة، وفيه وصف ربه الذى يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه .

وفيه بيان المقتضى للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا(٤٥) ونحوه أكمل أنواع الطلب.

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك، كقول موسى عليه السلام: ﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾(٤٦)

---

(٤٣) فى أ « لقول »

(٤٤) حديث : « قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً » أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٠٣/١ ، ١٥٠/٧ ، ١٦٨/٨ . ومسلم فى صحيحه ص ٢٠٧٨. والترمذى فى سننه برقم ٣٥٣١. والنسائى فى سننه ٥٣/٣. والإمام أحمد فى المسند ٧/١. وابن ماجة فى سننه برقم ٣٨٣٥ .

(٤٥) فى ج « فذا »

(٤٦) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ .

فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضى الإجابة

وقوله ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾(٤٧)

فيه وصف حال النفس والطلب

وقوله ﴿ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ (٤٨)

فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال

فهذه أنواع ، لكل نوع منها خاصة.

يبقى أن يقال: فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟

فيقال : لأن المقام مقام (٤٩) اعتراف بأن ما أصابنى من الشر كان بذنبى. فأصل الشر هو الذنب ، والمقصود دفع الضر ، والاستغفار جاء بالقصد الثانى، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسىء ظالم ، وهو الذى أدخل الضر على نفسه، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثانى بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له فى حال وجوده بالقصد الأول ، إذ (٥٠) النفس بطبعها تطلب ماهى محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر فى المستقبل بالقصد الثانى ، والمقصود الأول فى هذا المقام

(٤٧) سورة القصص الآية : ١٦ .

(٤٨) سورة القصص الآية : ٢٤ .

(٤٩) كلمة «مقام» سقطت من ج .

(٥٠) فى ج « اذا النفس » .

هو المغفرة وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم فى قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده.

معنى: ﴿ سبحانك ﴾

وهذا يتبين بالكلام على قوله : ﴿ سبحانك ﴾ فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : أنت مقدس ومنزه عن ظلمى وعقوبتى بغير ذنب بل أنا الظالم الذى ظلمت نفسى.

قال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥١)

وقال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ (٥٢)

وقال : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٥٣)

وقال آدم عليه السلام : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾(٥٤)

وكذلك قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى فى مسلم فى دعاء الاستفتاح « اللهم أنت الملك لا اله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »(٥٥)

---

(٥١) سورة النحل الآية : ١١٨ .

(٥٢) سورة هود الآية : ١٠١ .

(٥٣) سورة الزخرف الآية : ٧٦ .

(٥٤) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .

(٥٥) حديث « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ... » أخرجه مسلم فى صحيحه ٥٣٤/١. وكذلك أبو دواد فى سننه برقم ٧٦٠. والترمذى فى سننه برقم ٣٤٢١. والإمام أحمد فى المسند ٩٤/١، ١٠٢. والدارمى فى سننه ٢٨٢ . والنسائى فى سننه ١٣٠/٢ .

وفى صحيح البخارى: « سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة (٥٦)

فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه فإنه لا يظلم الناس شيئاً، فلا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وهو يحسن إليهم، فكل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

معنى: ﴿ لا إله إلا أنت ﴾

فقوله : ﴿ لا اله إلا أنت ﴾ فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية

---

(٥٦) حديث : « سيد الاستغفار أن يقول العبد .. ». أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٥/٧ . وكذلك أخرجه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٦١٧ ، ٦٢٠ . وأبو داود فى سننه برقم ٥٠٧٠ ، والترمذى فى سننه برقم ٣٣٩٣ . والنسائى فى سننه ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» برقم ١٩ ، ٢٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ . وابن ماجة فى سننه برقم ٣٨٧٢ . والإمام أحمد فى المسند ٣٥٦/٥ . والحاكم فى المستدرك ٥١٤/١ ، ٤٨٥/٢ . والطبرانى فى المعجم الكبير ٧١٧ ، ٧١٧٣ ، ٧١٨٩ . وابن أبى شيبة فى مصنفه ٢٩٦/١٠ . وابن حبان فى صحيحه ٢٣٥٣ (موارد) . وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ٣٧٤ .

تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها أثبت إحسانه إلى العباد (٥٧) فإن « الإله » هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل.

وقوله: ﴿ سبحانك ﴾ يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ، فإن التسبيح وإن كان يقال : يتضمن نفى النقائص .

وقد روى فى حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبى ﷺ فى قول العبد: سبحان الله « إنها براءة الله من السوء »(٥٨)

فالنفى لايكون مدحاً الا إذا تضمن ثبوتاً ، وإلا فالنفى (٥٩) المحض لا مدح فيه، ونفى السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى .

وهكذا عامة ما يأتى به القرآن فى نفى السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله .

كقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ (٦٠)

فنفى أخذ السِّنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته .

---

(٥٧) فى ج « الى العبد » .
(٥٨) حديث « أن سبحان الله براءة الله من السوء » أخرجه الطبرى فى تفسيره ٢/١٥ .
(٥٩) فى أ ، ب « فالعدم »
(٦٠) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

وقوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾[٦١] .

يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء، ونفى النقص عنه يتضمن تعظيمه .

ففى قوله: ﴿ سبحانك ﴾ تبرئته من الظلم ، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته الى الظلم أو لجهله ، والله غنى عن كل شىء، عليم بكل شىء، وهو غنى بنفسه، كل ما سواه فقير اليه ، وهذا كمال العظمة .

وأيضاً ففى هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقوله: ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ تهليل وقوله ﴿ سبحانك ﴾ تسبيح، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال :

« أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[٦٢]

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له.

---

(٦١) سورة ق الآية : ٣٨ .

(٦٢) حديث « أفضل الكلام بعد القرآن أربع .... » أخرجه البخارى فى صحيحه ٨/ ١٧٣ . وابن خزيمة فى صحيحه ١١٤٢ . والامام أحمد فى المسند ٥/ ٢٠، ٣٦/٤. وابن أبى شيبة فى مصنفه ٢٤٢/١٠ . وأخرجه مسلم فى صحيحه ١٦٨٥/٢ ، وفيه : « أحب الكلام إلى الله أربع .... ». وانظر : سنن الترمذى ٣٤٦٧. و «عمل اليوم والليلة» للنسائى ٨٣٠. وحلية الأولياء ٤٠٠/١٠. وسنن ابن ماجة ٣٨٠٦ .

وفى الصحيح : عن النبى ﷺ أنه[٦٣] سئل أى الكلام افضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده »[٦٤] .

وفى الصحيحين : عن النبى ﷺ أنه قال :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » [٦٥]

وفى القرآن : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾[٦٦] .

وقالت الملائكة : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ [٦٧] .

وهاتان الكلمتان: إحداهما مقرونة بالتحميد، والأخرى بالتعظيم، فإنّا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفى السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون على المحاسن

---

(٦٣) « أنه » سقطت من أ ، ب .

(٦٤) حديث « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله ... » أخرجه مسلم فى صحيحه ٢٠٩٣/٣ ، ٢٠٩٤ . والامام أحمد فى المسند ١٤٨/٥ ، والترمذى فى سننه برقم ٣٥٩٣ ، والحاكم فى المستدرك ٥٠١/١ ، وقال « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » وأخرجه كذلك البيهقى فى شعب الإيمان برقم ٥٨٦ . والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» برقم ٨٢٤ .

(٦٥) حديث « كلمتان خفيفتان على اللسان ...» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٦٨/٧، ٢٢٩، /٨ ٢١٩. ومسلم فى صحيحه ٢٠٧٢/٣ والبيهقى فى شعب الإيمان برقم ٥٨٥ ، والبخارى فى خلق أفعال العباد برقم ٣١ . والبغوى فى شرح السنة ٤٢/٥ .

(٦٦) سورة النصر الآية : ٣ .

(٦٧) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوباً محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظماً.

وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففى العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشىء عن عظمته وكبريائه. ففيها إجلاله وإكرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام

ومن الناس من يحسب أن « الجلال » هو الصفات السلبية و«الإكرام » الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازى ونحوه .

والتحقيق: أن كليهما صفات ثبوتية، وإثبات الكمال يستلزم نفى النقائص، لكن ذكر نوعى الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم :

كقوله : ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ (٦٨)

وقول سليمان عليه السلام ﴿ فإن ربى غنى كريم ﴾ (٦٩)

وكذلك قوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ (٧٠)

فإن كثيراً ممن (٧١) يكون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل

---

(٦٨) سورة لقمان الآية : ٢٦ .

(٦٩) سورة النمل الآية : ٤٠ .

(٧٠) سورة التغابن الآية : ١ .

(٧١) فى أ ، ب « كثيراً مما يكون » .

مذموماً ، اذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة ، فيتضمن إخباراً بمحاسن المحبوب محبة له (٧٢)

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل في(٧٣) العظمة والغنى والملك، فالأول يهاب ويخاف ولا يحب، وهذا يحب ويحمد، ولايهاب ولايخاف. والكمال اجتماع الوصفين.

كما ورد في الأثر: « **إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة** » (٧٤)

وفي نعت النبي ﷺ « **كان من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه** »(٧٥)

فقرن التسبيح بالتحميد، وقرن التهليل بالتكبير ، كما في كلمات الأذان.

ثم إن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا أفرد : فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية، فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً؛ بل تتضمن أنه لا يستحق كمال الحب إلا هو ، والحمد لله هو الإخبار(٧٦) عن المحمود بالصفات التى يستحق أن يحب فالإلهية

---

(٧٢) في أ « فيتضمن إخبار المحاسن بمحاسن المحبوبة محبة له »
وفي ب « فيتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة » .

(٧٣) في ج « ينفي » .

(٧٤) خبر «إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة » لم أقف عليه .

(٧٥) حديث «كان من رآه بديهة هابه» أخرجه الترمذي في سننه برقم ٣٦٣٨. والبيهقي في دلائل النبوة ٢٧٠/١ .

(٧٦) في ج « والحمد هو الإخبار » .

تتضمن كمال الحمد، ولهذا كان « الحمد لله » مفتاح الخطاب « وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم »(٧٧)

و « سبحان الله » فيها إثبات عظمته كما قدمناه .

ولهذا قال : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (٧٨)

وقد قال النبى ﷺ « اجعلوها في ركوعكم » رواه أهل السنن(٧٩).

وقال « أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم » رواه مسلم(٨٠)

---

(٧٧) حديث «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ...» أخرجه أبو داود فى سننه برقم ٨٦٩. والبيهقى فى السنن الكبرى ٢٠٩/٣، ٣٣٠/٨. والطبرانى فى المعجم الكبير ٧٢/١٩. وابن ماجة فى سننه برقم ١٨٩٤. والدارقطنى فى سننه ٢٢٩/٢. وابن حبان فى صحيحه برقم ٥٧٨. ١٩٩٣ (موارد) وانظر: اتحاف السادة المتقين ٢/٣ ، ٤٦٦. وكشف الخفا ١٧٤/٢. والدر المنثور ١٢/١، ٤٣٨/٢. وفتح البارى ٨/١، ٢٢٠/٨.

(٧٨) سورة الواقعة الآية : ٧٤ .

(٧٩) حديث « اجعلوها فى ركوعكم » أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٥٥/٤، وأبو داود فى سننه برقم ٨٦٩. والحاكم فى المستدرك ٤٧٧/٢. وابن ماجة فى سننه برقم ٨٨٧.

(٨٠) حديث «أما الركوع فعظموا فيه الرب».. أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٤٨/١. وأبو داود فى سننه برقم ٨٧٦. والدارمى فى سننه ٣٠٤، والنسائى فى سننه ١٨٩/٢، وابن خزيمة فى صحيحه برقم ٥٤٨. والبيهقى فى السنن الكبرى ٨٧/٢، ٨٨.

فجعل التعظيم فى الركوع أخص منه بالسجود، والتسبيح يتضمن التعظيم.

ففى قوله « سبحان الله وبحمده » إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده

وأما قوله « لا إله إلا الله والله أكبر » ففى لا إله إلا الله إثبات محامده [81] فإنها كلها داخلة فى إثبات إلهيته

وفى قوله: « الله اكبر » إثبات عظمته فإن الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء أكمل .

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول « الله أكبر » فإن ذلك أكمل من قول « الله أعظم »

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال :

« يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منها [82]عذبته » [83]

فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أن الرداء أشرف ، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفى قوله سبحان الله صرح فيه بالتنزيه من السوء

---

(٨١) فى أ، ب «لا إله إلا الله محامده» ..

(٨٢) فى أ «منهما» ..

(٨٣) حديث «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائى..» أخرجه مسلم فى صحيحه ٢٠٢٣/٣. وأبو داود فى سننه برقم ٤٠٩٠. وابن ماجه فى سننه برقم ٤١٧٤، والإمام أحمد فى المسند ٣٧٦/٢، ٤١٤.

المتضمن للتعظيم، فصار كل من الكلمتين متضمناً معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها.

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر ؛ فإنه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا باللزوم ، وأما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة ودلالتها على أحدهما بالتضمن .

فقول الداعى : ﴿ **لا إله إلا انت سبحانك** ﴾ يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتى هن أفضل (٨٤) الكلام بعد القرآن، وهذه الكلمات تتضمن معانى أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : ﴿ **انى كنت من الظالمين** ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد أن يبرىء نفسه عن هذا الوصف ، لا سيما فى مقام مناجاته لربه .

وقد ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى** »(٨٥) .

---

(٨٤) فى أ ، ب «من أفضل» .

(٨٥) حديث «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».. أخرجه البخارى فى صحيحه ١٣٢/٤، ومسلم فى صحيحه ١٨٤٦/٢ . وأبو داود فى سننه برقم ٤٦٦٩ .

وقال: « من قال: أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب »(٨٦) .
فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه ؛ فهو كاذب، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس فى هذا المقام ، بل يقولون: كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ تسليماً . (٨٧)

□□□

(٨٦) حديث «من قال أنا خير من يونس» .. أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/٤٨٥. وقال: صحيح على شرط الشيخين ..
(٨٧) «تسليماً» سقطت من ج ..

فصل
سبب كشف الضر بهذا الدعاء

وأما قول السائل : لـم كانت موجبة لكشف الضر؟

فذلك لأن الضر لايكشفه إلا الله كما قال تعالى :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾[88]

والذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه كما قال[89] تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾[90]

فأخبر أنه سبحانه لا يعذب مستغفراً.

وفي الحديث: « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب »[91]

---

(٨٨) سورة يونس الآية : ١٠٧ .

(٨٩) في أ ، ب «سببه» .

(٩٠) سورة الأنفال الآية : ٣٣.

(٩١) حديث «من أكثر الاستغفار جعل الله له».. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٣٦ بسند ضعيف. وأخرجه أبو داود في سننه برقم ١٥١٨ ، والإمام أحمد في المسند ٤٨/١ ، والحاكم في المستدرك ٢٦٢/٤ . والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم ٤٥٦ ، وابن ماجه في سننه ٣٨١٩ . وابن السني في عمل اليوم والليلة برقم ٣٦٦ . وأبو نعيم في حلية الأولياء ١١١/٣ .

وقال تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٩٢)

فقوله ﴿ إنى كنت من الظالمين ﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة

وقوله : ﴿ لا اله الا انت ﴾ تحقيق لتوحيد الإلهية، فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والمعوق له من العبد هو ذنوبه ، وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سبباً للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغى للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ، ولا يخاف من الله أن يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه .

وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال: لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه .

وفى الحديث المرفوع الى النبى ﷺ أنه دخل على مريض فقال: « كيف تجدك ؟ » فقال : ارجو الله واخاف ذنوبى ، فقال : « ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف »(٩٣) .

---

(٩٢) سورة الشورى الآية : ٣٠.

(٩٣) حديث «كيف تجدك، فقال: أرجو الله وأخاف» أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٩٨٣. وابن ماجه برقم ٤٢٦١. والبيهقى فى شعب الإيمان برقم ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢. وفى كتاب الآداب برقم ١١٤٧.

فالرجاء ينبغى أن يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك ، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لا بد له من معاون ، ولا بد أن يمنع العارض(٩٤) المعوق له وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى:

ولهذا قيل : الالتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ (٩٥) فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال :

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٩٦)

فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته، أو عمله، أو علمه، أو حاله ، أو صديقه ، أو قرابته ، أو شيخه ، أو ملكه ، أو ماله ، غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك.

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٩٧)

---

(٩٤) فى ج « المعارض ».
(٩٥) سورة الشرح الآية : ٧، ٨.
(٩٦) سورة المائدة الآية : ٢٣ .
(٩٧) سورة الحج الآية : ٣١ .

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا ﴾(٩٨)

والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٩٩)

وقد فسر النبى ﷺ الظلم هنا بالشرك .. ففى الصحيح : عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى ﷺ :

« إنما هذا الشرك، ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح: ﴿ ان الشرك لظلم عظيم ﴾(١٠٠) ؟ »

وقال تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وان الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من

---

(٩٨) سورة آل عمران الآية : ١٥١.

(٩٩) سورة الأنعام الآية : ٨٢.

(١٠٠)حديث «إنما هذا الشرك..» أخرجه البخارى فى صحيحه ١١٢/٤ ، ١٣٧. ومسلم فى صحيحه ١١٤/١. والإمام أحمد فى المسند ١/ ٣٧٨، ٤٢٤، ٤٤٤ .
والآية فى سورة لقمان الآية : ١٣.

الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(١٠١)

وقال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾(١٠٢)

ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها، ولا يرجى إلا الله. قال تعالى لما أنزل الملائكة :

﴿ وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (١٠٣)

وقال : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١٠٤)

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح الا لله، فمن جعل مع الله إلهاً آخر قعد مذموماً مخذولاً. والراجى سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله ولايسأل غيره .

---

(١٠١) سورة البقرة الآية : ١٦٧.
(١٠٢) سورة الإسراء الآية : ٥٦، ٥٧.
(١٠٣) سورة آل عمران الآية : ١٢٦ .
(١٠٤) سورة آل عمران الآية : ١٦٠.

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فَخُذْه، وما لا فلا تتبعه نفسك »(١٠٥)

فالمشرف الذى يستشرف بقلبه ، والسائل الذى يسأل بلسانه .

وفى الحديث الذى فى الصحيحين: عن أبى سعيد الخدرى قال: أصابتنا فاقة فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول: « أيها الناس، والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم وإنه من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »(١٠٦)

و « الاستغناء » أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه و« الاستعفاف » أن لا يسأل بلسانه أحداً .

ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال : قطع الاستشراف الى الخلق – أى لا يكون فى قلبك أن أحداً يأتيك بشئ – فقيل له: فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبريل: هل لك من حاجة ؟ فقال : « أما إليك فلا »(١٠٧)

---

(١٠٥) حديث «ما أتاك من هذا المال وأنت..» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٣٠/٢ ، ١١١/٨ . ومسلم فى صحيحه ٧٢٣/١.

(١٠٦) حديث «أيها الناس والله مهما يكن..» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٢٩/٢، ١٨٣/٧. ومسلم فى صحيحه ٧٢٩/١، وأبو داود فى سننه برقم ١٦٤٤ ، وغيرهم ..

(١٠٧) حديث «أما إليك فلا..» قال المؤلف: موضوع (نقلاً عن ابن عراق فى تنزيه الشريعة ٢٥٠/١).

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد فى طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه الا الى الله فلهذا قال المكروب : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾

ومثل هذا ما فى الصحيحين : عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول عند الكرب:

« لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات(١٠٨) ورب الأرض رب العرش الكريم »(١٠٩)

فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد، وتأله العبد ربه ، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له، وهى لفظ خبر يتضمن الطلب .

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله ، فقول العبد لها مخلصاً من قلبه له حقيقة أخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله .

قال تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾(١١٠).

فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه أى جعل

---

(١٠٨) فى ج « لا إله رب السموات» ..

(١٠٩) حديث « لا إله إلا الله العظيم..» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٥٤/٧ ، ١٧٧/٨، ١٧٨. ومسلم فى صحيحه ٢٠٩٣/٣. والإمام أحمد فى المسند ٢٢٨/١، ٢٥٤. والحاكم فى المستدرك ٥٠٨/١ . وابن حبان فى صحيحه ٢٣٧١ (موارد الظمآن) .

(١١٠) سورة الفرقان الآية : ٤٣ ، ٤٤.

معبوده هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله ولهذا قال الخليل : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ (١١١)

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه(١١٢) ويظنه نافعاً له كالشمس والقمر والكواكب والخليل بيّن أن الآفل يغيب عن عابده وتحجبه(١١٣) عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله، ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأى وجه لعبادة من يأفل ؟!

وكلما حقق العبد الإخلاص فى قول(١١٤) : لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه ، وتصرف عنه(١١٥) المعاصى والذنوب ، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾(١١٦)

فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين (١١٧) قال فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ (١١٨)

---

(١١١) سورة الأنعام الآية : ٧٦ .
(١١٢) فى أ ، ب «يستحقه» .
(١١٣) فى أ ، ب «ويحجبه» .
(١١٤) فى أ ، ب «قوله» .
(١١٥) فى أ ، ب «ويصرف عنه» .
(١١٦) سورة يوسف الآية : ٢٤ .
(١١٧) فى ج «هو الذين» .
(١١٨) سورة الحجر الآية : ٤٢ .

وقال الشيطان: ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾(١١٩)

وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: « من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار »(١٢٠)

فإن الإخلاص ينفي اسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار ، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذى أوقعه فيما أدخله النار ، و« الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل »(١٢١)، ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾(١٢٢)

والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله ، إما خوفاً منه، وإما رجاء له؛ فلا يزال العبد مفتقراً الى تخليص توحيده من شوائب الشرك.

---

(١١٩) سورة ص الآية : ٨٢ ، ٨٣ .

(١٢٠) حديث «من قال لا إله إلا الله مخلصاً..» أخرجه البخارى فى صحيحه ٤١/١، ومسلم فى صحيحه ٦١/١. وأحمد فى المسند ٢٢٩/٥ . والبيهقى فى الشعب برقم ٧. وفى الأسماء والصفات ١٢٦ . وابن منده فى الإيمان ٢٣٥/١ .

(١٢١) حديث «الشرك فى هذه الأمة أخفى..» أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ١٨١. والعقيلى فى الضعفاء ٦١/٣. وأبو نعيم فى الحلية ٣١/٣، ١١٤، ١١٢/٧، ٣٦٨/٨، ٢٥٣/٩. وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٢٣/١٠. والزبيدى فى الإتحاف ٤٧٠/٢، ٣٠٤/٧، ٣١/٨. وابن القيسرانى فى التذكرة ١٠٨١.

(١٢٢) سورة الفاتحة الآية ٥.

وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال:

« **يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثث فيهم[١٢٣] الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** »[١٢٤]

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ[١٢٥] إلهه هواه، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار، وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر، فلهذا قال ذو النون:

﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾[١٢٦].

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع

كقوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾[١٢٧] .

وقال : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه** ﴾[١٢٨]

---

(١٢٣) فى أ ، ب « ثبتت فيهم» .

(١٢٤) حديث «يقول الشيطان : أهلكت..» أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة برقم ٧. وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٠٧/١٠ وقال: «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف» .

(١٢٥) فى أ ، ب «من اتخذ» ..

(١٢٦) سورة الأنبياء الآية : ٨٧.

(١٢٧) سورة محمد الآية : ١٩.

(١٢٨) سورة هود الآية : ٢ ، ٣.

وقوله: ﴿ والى عاد أخاهم هودًا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ الى قوله: ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾(١٢٩)

وقوله: ﴿ فاستقيموا اليه واستغفروه ﴾(١٣٠) وخاتمة المجلس: « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك »(١٣١)

إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو كانت كفارة له.

وقد روى أيضاً أنها تقال فى آخر الوضوء بعد أن يقال : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين »(١٣٢) .

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار فإن صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعه؛ فإن جميع الدين داخل فى «الشهادتين» إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله، وأن نطيع رسوله،

---

(١٢٩) سورة هود الآية : ٥٠ ـ ٥٢ .

(١٣٠) سورة فصلت الآية : ٦ .

(١٣١) حديث «سبحانك اللهم وبحمدك..» أخرجه الحاكم فى المستدرك ١/٥٣٧، وكذلك أبو داود فى سننه برقم ٤٨٥٩. والنسائى فى سننه ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(١٣٢) حديث «أشهد أن لا إله إلا الله وحده..» أخرجه مسلم فى صحيحه ١/٢٠٩. وأبو داود فى سننه برقم ١٦٩. والترمذى فى سننه برقم ٥٥ . وأحمد فى المسند١/١٩.

و«الدين» كله داخل فى هذا فى عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله، وكل[١٣٣] ما يجب أو يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله .

وقد روى أنه كان يقول: [١٣٤] « **سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك** »[١٣٥]

وهذا كفارة المجلس، فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء.

وكذلك كان النبىﷺ يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح أنه كان يقول فى آخر صلاته:

« **اللهم اغفر لي ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت** »[١٣٦]

وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد ، لأن الدعاء مأمور به فى آخر الصلاة وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فإن تقديم التوحيد أفضل.

فإن جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة أفضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب، وإن كان المفضول قد يفضل على الفاضل فى موضعه الخاص بسبب وبأشياء أخرى ، كما أن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر الذى هو ثناء ، والذكر أفضل

---

(١٣٣) فى ج «كل ما يجب».
(١٣٤) فى أ، ب «أنه يقول».
(١٣٥) سبق تخريجه قريباً.
(١٣٦) حديث «اللهم اغفر لى ما قدمت...» جزء من حديث فى صحيح مسلم وسبق جزء منه فى رقم (٥٥).

من الدعاء الذى هو سؤال. ومع هذا فالمفضول له أمكنة وأزمنة وأحوال يكون فيها أفضل من الفاضل، لكن أول الدين، وآخره، وظاهره، وباطنه، هو التوحيد، وإخلاص الدين كله لله هو: تحقيق قول لا إله إلا الله.

فإن المسلمين وإن اشتركوا فى الإقرار بها، فهم متفاضلون فى تحقيقها تفاضلاً لا نقدر أن نضبطه، حتى إن كثيراً منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه. ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذى أقر به مشركو العرب. وبين توحيد الإلهية الذى دعاهم اليه رسول الله ﷺ ولا يجمعون بين التوحيد القولى والعملى.

فإن المشركين ماكانوا يقولون: ان العالم خلقه اثنان، ولا أن مع الله رباً ينفرد دونه بخلق كل شيء(١٣٧) بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾(١٣٨).

وقال تعالى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾(١٣٩)

وقال تعالى: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾(١٤٠)

---

(١٣٧) فى ج «دونه بخلق شيء».
(١٣٨) سورة لقمان الآية: ٢٥.
(١٣٩) سورة يوسف الآية: ١٠٦.
(١٤٠) سورة المؤمنون الآية: ٨٤ ـ ٨٩.

وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى، يجعلونهم شفعاء لهم إليه. ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. ويحبونهم كحب الله.

والإشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك فى الاعتقاد والإقرار، كما قال تعالى:

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾(١٤١)

فمن أحب مخلوقًا كما يحب الخالق فهو مشرك به، قد اتخذ من دون الله(١٤٢) أندادًا يحبهم كحب الله، وإن كان مقرًا بأن الله خالقه.

ولهذا فرق الله ورسوله بين مَنْ أحب مخلوقًا لله ، وبين مَنْ أحب مخلوقًا مع الله، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذى هو منتهى حبه وعبادته ، لا يحب معه غيره : لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبَّهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله وفرعاً عليه وداخلاً فيه .

بخلاف مَنْ أحب مع الله ، فجعله نداً لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ، ويتخذه شفيعاً له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه :

---

(١٤١) سورة البقرة الآية: ١٦٥.

(١٤٢) فى أ، ب « فهو مشرك به من دون الله ».

قال تعالى :﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (١٤٣)

وقال تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إلَه إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١٤٤)

وقد قال عدى بن حاتم للنبى ﷺ: ما عبدوهم، قال : « أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم إياهم » (١٤٥)

قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾(١٤٦)

وقال تعالى : ﴿ ويوم يعض الظَّالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (١٤٧)

فالرسول وجبت طاعته ؛ لأنه مَنْ يطع الرسول فقد أطاع اللهَ ، فالحلال ما حلّله ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرعه ، ومَنْ

---

(١٤٣) سورة يونس الآية : ١٨ .

(١٤٤) سورة التوبة الآية: ٣١ .

(١٤٥) حديث «أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم...» أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٣٠٩٥. والبيهقى فى السنن الكبرى ١١٦/١٠.

(١٤٦) سورة الشورى الآية: ٢١ .

(١٤٧) سورة الفرقان الآية: ٢٧ ، ٢٨ .

سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله ، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة فى طاعة الرسول .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ (١٤٨) .

فلم يقل : وأطيعوا الرسول وأطيعوا أُولى الأمر منكم . بل جعل طاعة أُولى الأمر داخلة فى طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة لله ، وأعاد الفعل فى طاعة الرسول دون طاعة أولى الأمر ، فإنه مَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله ، فليس لأحد إذا أمر الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا ، بخلاف أولى الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله ، فليس كل منْ أطاعهم مطيعاً لله . بل لا بدّ فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله، وينظر هل أمر الله به أم لا ، سواء كان أولى الأمر من العلماء أو الأمراء، يدخل فى هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا يكون الدين كله لله.

قال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾(١٤٩) .

وقال النبى ﷺ لما قيل له : يارسول الله ، الرجل يقاتل شجاعةً ، ويقاتل حميةً ، ويقاتل رياء. فأىُّ ذلك فى سبيل الله؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** ».(١٥٠)

---

(١٤٨) سورة النساء الآية : ٥٩.

(١٤٩) سورة الأنفال الآية : ٣٩ .

(١٥٠) حديث « من قاتل لتكون كلمة الله ...»
أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٠/١، ١٨٩/٨. ومسلم فى صحيحه ١٥١٢/٢. والبيهقى في السنن الكبرى ١٦٧/٩. والترمذى فى سننه برقم ١٦٤٦. والإمام أحمد فى المسند ٣٩٧/٤، ٤٠٥، ٤١٧.

ثم إن كثيراً من الناس يحب خليفة أو عالماً أو شيخاً أو أميراً فيجعله نداً لله ، وإن كان قد يقول : انه يحبه لله .

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالى أولياءه ، ويعادى أعداءه مع إيجابه طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله ، فهذا من الشرك الذى يدخل أصحابه فى قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والَذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ (١٥١)

فالتوحيد والإشراك يكون فى أقوال القلب ، ويكون فى أعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب.

أراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق ، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله ، وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

❑❑❑

(١٥١) سورة البقرة الآية : ١٦٥.

ما هو الإيمان ؟

وهذا كلفظ « الإيمان » فإنه إذا أُفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة.

وقيل الإيمان قول وعمل ، أى : قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح.

ومنه قول النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه :

« الإيمانُ بضعٌ وستُّون شُعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان »(١٥٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾(١٥٣)

وقوله :﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًا ﴾ (١٥٤).

---

(١٥٢) حديث «الإيمان بضع وستون شعبة». اختلفت الروايات بين «بضع وستون» و«بضع وسبعون» فى هذا الحديث. وقد أخرجه البخارى ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه وغيرهم. انظر الحديث فى (صحيح البخارى ٥١/١، وفى الأدب المفرد ١٥٦. وسنن أبى داود ٥٥/٥. وسنن النسائى ١١٠/٨. وسنن الترمذى ١٠/٥ . وسنن ابن ماجه ٢٢/١. والشعب للبيهقى ٩٧/١: ١٠١.

(١٥٣) سورة الحجرات الآية : ١٥.

(١٥٤) سورة الأنفال الآية: ٢ــ ٤.

وقوله:﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾.(١٥٥)

و « الإيمان المطلق » يدخل فيه الإسلام كما فى الصحيحين : عن النبى ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس :

« آمركم بالإيمان بالله ؛ أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » (١٥٦)

ولهذا قال مَنْ قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً .

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما كما فى قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾(١٥٧)

وهو فى القرآن كثير ، وكما فى قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال(١٥٨) :

---

(١٥٥) سورة النور الآية: ٦٢.

(١٥٦) حديث «آمركم بالإيمان بالله..» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٩/١، ١٣٣، ١٠٩/٢، ٤٤/٤، ١١٦/٥، ١٣٦/٨، ٢١٧. ومسلم فى صحيحه ٤٦/١، ٤٧، ١٥٧٩/٢. وأبو داود فى سننه ٩٤/٤، ٥٧/٥. والترمذى فى سننه ٨/٥، والنسائى فى سننه ٣٢٣/٨. والإمام أحمد فى المسند ٢٢٨/١. والطبرانى فى المعجم الكبير ١٢٩٤٩، ١٢٩٥٦. والبيهقى فى شعب الإيمان برقم ١٨، وفى المدخل ٢٣٦.

(١٥٧) سورة البقرة الآية: ٢٧٧.

(١٥٨) فى أ،ب «عن الإسلام والإيمان فقال».

« الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » قال: فما الإيمان ؟ قال: « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

قال : فما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١٥٩) .

ففرق في هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرن بين الاسمين وفى ذلك النص أدخل الإسلام فى الإيمان لما أفرده بالذكر.

وكذلك لفظ « العمل » فإن الإسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة ، وإيمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده ، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمداً رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه.

و« الإيمان » وإن تضمن التصديق فليس هو مرادفاً له ، فلا يقال لكل مصدق بشئ : أنه مؤمن به . فلو قال : أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ، ونحو ذلك

---

(١٥٩) حديث «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله...». أخرجه البخارى فى صحيحه ١٨/١. ومسلم فى صحيحه ٣٨/١. وأبو داود فى سننه ٤٦٩٥. والترمذى ٧/٥. والنسائى ٩٧/٨. وابن ماجه ١/٢٤. وأبو نعيم فى الحلية ٣٠٢/٨. والبيهقى فى شعب الإيمان برقم ١٩. وفى دلائل النبوة ٦٩/٧. والطبرانى فى المعجم الكبير ١٣٥٨١. والإمام أحمد فى المسند ٥١/١، ٤٢٦/٢.

مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا : أنه مؤمن بذلك ؛ بل لا يستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ (١٦٠)

فإنهم أخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين مَنْ آمن له وآمن به، فالأول : يقال للمخبر ، والثاني : يقال للمخبر به كما قال إخوة يوسف : ﴿ وماأنت بمؤمن لنا ﴾ (١٦٠)

وقال تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾(١٦١)
وقال تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ (١٦٢)

ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين ؛ لأن المراد بصدق المؤمن(١٦٣) إذا أخبروه ، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به .

ومنه قوله تعالى عن قول فرعون وملئه : (١٦٤).

﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ (١٦٥)، أي : نقر لهما ونصدقهما .

ومنه قوله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم

---

(١٦٠) سورة يوسف الآية: ١٧.
(١٦١) سورة يونس الآية: ٨٣.
(١٦٢) سورة التوبة الآية: ٦١.
(١٦٣) فى ج «لأن المراد يصدق المؤمن» وفى أ، ب «لأن المراد بصدق المؤمنين».
(١٦٤) فى ج «عن فرعون وملائه».
(١٦٥) سورة المؤمنون الآية : ٤٧.

يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾[١٦٦] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾[١٦٧] .

ومن المعنى الآخر قوله تعالى :﴿ يؤمنون بالغيب ﴾[١٦٨] .

وقوله ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [١٦٩] .

وقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ [١٧٠]

أى : أقر بذلك، ومثل هذا فى القرآن كثير.

و المقصود هنا : أن لفظ « الإيمان » إنما يستعمل فى بعض الأخبار ، وهو مأخوذ من الأمن [١٧١] ، كما أن الإقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب أمن . كما أن المقر صاحب إقرار ، فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالماً بأن محمداً رسول الله ، ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه ، بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه ، فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به.

---

(١٦٦) سورة البقرة الآية : ٧٥.
(١٦٧) سورة العنكبوت الآية: ٢٦ .
(١٦٨) سورة البقرة: الآية ٣.
(١٦٩) سورة البقرة الآية: ٢٨٥ .
(١٧٠) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(١٧١) فى أ، ب «الأيمن».

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذب خبراً ولا مخبراً ، بل استكبر عن أمر ربه . وفرعون وقومه قال الله فيهم:

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ (١٧٢)

وقال له موسى: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ (١٧٣) .

وقال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ (١٧٤) .

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه .

وقد كان النبيﷺ يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع » (١٧٥) .

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان، وإن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه، وهذا من أعظم الجهل شرعاً وعقلاً. وحقيقته توجد التسوية (١٧٦) بين المؤمن والكافر، ولهذا أطلق وكيع بن الجراح

---

(١٧٢) سورة النمل الآية: ١٤ .

(١٧٣) سورة الإسراء الآية: ١٠٢ .

(١٧٤) سورة البقرة الآية: ١٤٦ .

(١٧٥) حديث «اللهم إنى أعوذ بك من علم...» أخرجه مسلم فى صحيحه ٢٠٨٨/٣ .

(١٧٦) فى ج «وحقيقته توجب التسوية» .

وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ، فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالماً بالحق ويبغضه لغرض آخر، فليس كل من كان مستكبراً عن الحق يكون غير عالم به، وحينئذ فالإيمان لابد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الإيمان قول وعمل.

ثم أنه إذا تحقق القلبُ بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعاً، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقراراً تاماً بأن محمداً رسول الله وأحبه محبة تامة امتنع مع ذلك أن لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزاً لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بهما .

وأبو طالب وان كان عالماً بأن محمداً رسول الله وهو محب له، فلم تكن محبته له لمحبته لله بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة واذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لانه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذى قال الله فيه: ﴿ **وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى** ﴾(١٧٧).

(١٧٧) سورة الليل الآية: ١٧ـ ٢١.

وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً فكان حبه حباً مع الله لا حباً لله ولهذا لم يقبل الله مافعله من نصر الرسول ومؤازرته لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من إخلاص الدين لله والدين لا يكون ديناً إلا بعمل فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد أنزل الله عز وجل سورتى الكافرون و الإخلاص: « **قل يا أيها الكافرون** » و« **قل هو الله أحد** » .

إحداهما : فى توحيد القول والعلم. والثانية: فى توحيد العمل والإرادة .

فقال فى الأول : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(١٧٨)

فأمره أن يقول هذا التوحيد

وقال فى الثانى: ﴿ **قل ياأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين** ﴾(١٧٩)

---

(١٧٨) سورة الإخلاص بأكملها.

(١٧٩) سورة الكافرون بأكملها.

فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله

والعبادة أصلها القصد والإرادة، والعبادة اذا أُفردت دخل فيها التوكل ونحوه، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيماً لها كما ذكرناه فى لفظ الايمان .

قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١٨٠]

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾[١٨١]

فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات والتوكل من ذلك

وقد قال فى موضع آخر: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[١٨٢]

وقال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[١٨٣]

ومثل هذا كثيراً ما يجىء فى القرآن تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه بحسب الإفراد والاقتران كلفظ المعروف والمنكر فإنه قد قال :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[١٨٤]

---

(١٨٠) سورة الذاريات الآية: ٥٦.
(١٨١) سورة البقرة الآية : ٢١.
(١٨٢) سورة الفاتحة الآية : ٥.
(١٨٣) سورة هود الآية: ١٢٣.
(١٨٤) سورة آل عمران الآية : ١١٠.

وقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[(١٨٥)]

وقال: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ [(١٨٦)].

فالمنكر يدخل فيه ما كرهه الله: كما يدخل فى المعروف ما يحبه الله. وقد قال فى موضع آخر :

﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [(١٨٧)].

فعطف المنكر على الفحشاء، ودخل فى المنكر هنا البغى.

وقال فى موضع آخر: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾[(١٨٨)].

فقرن بالمنكر الفحشاء والبغى.

ومن هذا الباب لفظ « الفقراء والمساكين » إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرق؛ لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عموم وخصوص، فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده، ونحو هذا كل هذا يدخل فى توحيد الله تعالى.

قال تعالى فى المحبة: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ [(١٨٩)]

---

(١٨٥) سورة التوبة الآية: ٧١.

(١٨٦) سورة الأعراف الآية : ١٥٧.

(١٨٧) سورة العنكبوت الآية : ٤٥.

(١٨٨) سورة النحل الآية: ٩٠.

(١٨٩) سورة البقرة الآية : ١٦٥.

وقال تعالى: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ (١٩٠)

وقال تعالى﴿ ومن يطع الله ورسوله ويَخْشَ الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(١٩١)

فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده

وقال تعالى: ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾(١٩٢)

وقال تعالى: ﴿ فإذا فرغت فانصب والى ربك فارغب ﴾(١٩٣)

فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع

والمقصود هنا : أن قول القائل ﴿ لا إله إلا انت ﴾ فيه إفراد الإلهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً . فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى فلا يخصونه بالإلهية، وتخصيصه بالإلهية يوجب أن

---

(١٩٠) سورة التوبة الآية : ٢٤.

(١٩١) سورة النور الآية : ٥٢.

(١٩٢) سورة التوبة الآية : ٥٩.

(١٩٣) سورة الشرح الآية: ٧، ٨.

لا يعبد(١٩٤) إلا إياه وأن لا يسأل غيره كما فى قوله : ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ (١٩٥) .

فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه لكن فى أمور لا يحبها الله بل يكرهها وينهى عنها، فهذا وإن كان مخلصاً له فى سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصاً فى عبادته وطاعته وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فإنهم يعانون على هذه الأمور.

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة .

قال تعالى: ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ (١٩٦) .

وقال تعالى: ﴿ واذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ﴾ (١٩٧)

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، اذ (١٩٨) لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف

---

(١٩٤) فى أ، ب «بالإلهية أن لا يعبد إلا..» .

(١٩٥) سورة الفاتحة الآية: ٥.

(١٩٦) سورة الإسراء الآية: ٦٧ .

(١٩٧) سورة يونس الآية: ١٢ .

(١٩٨) فى أ، ب «إذا لم يحققوا» .

والجزع تارة وبالإعجاب أخرى فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فإن حصل مراده نظر الى نفسه وقوته، فحصل له إعجاب، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل.

قال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ الى قوله: ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾(١٩٩)

وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ والمعجب لايحقق قوله ﴿ اياك نستعين ﴾ فمن حقق قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله ﴿ اياك نستعين ﴾ خرج عن الإعجاب

وفي الحديث المعروف « ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، واعجاب المرء بنفسه » (٢٠٠) .

---

(١٩٩) سورة التوبة الآية: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢٠٠) حديث «ثلاث مهلكات: شح مطاع...». أخرجه البزار في مسنده برقم ٨٠،٨١،٨٢ (كشف الأستار). والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٣١. وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢١٩/٢، ٢٤٣. الدولابي في الكنى والأسماء ١٥١/١.
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩١/١. والمنذري في الترغيب والترهيب ١٦٢/١، وقال: «وهو مروى عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله».

وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين .

ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كأصحاب الأحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور، ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التى تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله، كما قد بسط الكلام عليهم فى مواضع أخر .

وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن أنه من كرامات الأولياء وإنما هو من احوال السحرة والكهان، ولهذا يجب الفرق بين الأحوال الإيمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

وأما القسم الرابع: فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا الا إياه ولم يتوكلوا إلا عليه.

وقول المكروب : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ قد يستحضر فى ذلك أحد النوعين دون الآخر ، فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد فى النوعين ، فإن المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه ، فقد يقول : « لا إله الا الله » مستشعراً أنه لا يكشف الضر غيرك ، ولا يأتى بالنعمة إلا أنت ، فهذا مستحضر توحيد الربوبية ، ومستحضر توحيد السؤال والطلب ، والتوكل عليه، معرض عن توحيد الإلهية الذى يحبه الله ويرضاه ، ويأمر به وهو أن لا يعبد إلا إياه ولا يعبده الا بطاعته ، وطاعة رسوله، فمن استشعر هذا فى قوله : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ كان عابداً لله ، متوكلاً عليه، وكان ممتثلاً قوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾(٢٠١).

---

(٢٠١) سورة هود الآية : ١٢٣.

وقوله : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (٢٠٢) .

وقوله : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ (٢٠٣) .

ثم إن كان مطلوبه محرماً أثم ، وإن قضيت حاجته. وإن كان طالباً مباحاً لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته ، لم يكن آثماً ولا مثاباً ، وإن كان طالباً ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثاباً مأجوراً.

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه ، وبين النبى الملك، فإن نبينا محمداً ﷺ خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، فإن العبد الرسول هو الذي لا يفعل إلا ما أمر به ، ففعله كله عبادة لله ، فهو عبد محض منفذ أمر مرسله ، كما ثبت عنه فى صحيح البخارى : أنه قال :

« إنى والله لا أعطى أحداً ولا أمنع أحداً وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » (٢٠٤) .

وهو لم يرد بقوله « لا أعطى أحداً ولا أمنع » إفراد الله بذلك قدراً وكوناً ، فإن جميع المخلوقين يشاركونه فى هذا فلا يعطى أحداً ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره، وإنما أراد إفراد الله بذلك شرعاً

(٢٠٢) سورة هود الآية: ٨٨.

(٢٠٣) سورة المزمل الآية: ٨، ٩.

(٢٠٤) حديث « إنى والله لا أعطى ولا أمنع ... »
أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٩/٤ . والإمام أحمد فى المسند ٤٨٢/٢.

ودينًا . أى لا أعطى إلا من أمرت بإعطائه ، ولا أمنع إلا من أمرت بمنعه، فأنا مطيع لله فى عطائى ومنعى(٢٠٥)، فهو يقسم الصدقة والفىء والغنائم كما يقسم المواريث بين أهلها، لأن الله أمره بهذه القسمة.

ولهذا كان المال حيث أضيف الى الله ورسوله ، فالمراد به ما يجب أن يصرف فى طاعة الله ورسوله، وليس المراد به أنه ملك للرسول، كما ظنه طائفة من الفقهاء، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خلقًا وقدراً ، فإن جميع الأموال بهذه المثابة .

وهذا كقوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ (٢٠٦)

وقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ الآية(٢٠٧) .

وقوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ إلى قوله ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ﴾ الآية (٢٠٨) .

فذكر فى الفىء ما ذكر فى الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء أن الإضافة الى الرسول تقتضى أنه يملكه ، كما يملك الناس أملاكهم .

---

(٢٠٥) فى ج « فى إعطائى ومنعى »
(٢٠٦) سورة الأنفال الآية : ١.
(٢٠٧) سورة الأنفال الآية : ٤١.
(٢٠٨) سورة الحشر الآية : ٦، ٧.

ثم قال بعضهم : إن غنائم بدر كانت ملكاً للرسول .

وقال بعضهم : إن الفيء وأربعة أخماسه كان ملكاً للرسول .

وقال بعضهم: إن الرسول إنما كان يستحق من الخمس خمسه.

وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحق من خمس الفيء خمسه .

وهذه الأقوال توجد فى كلام طوائف من أصحاب الشافعى، وأحمد، وأبى حنيفة ، وغيرهم ، وهذا غلط من وجوه:

منها : أن الرسول لم يكن يملك هذه الأموال كما يملك الناس أموالهم ، ولا كما يتصرف الملوك فى ملكهم ، فإن هؤلاء وهؤلاء لهم أن يصرفوا أموالهم فى المباحات ، فإما أن يكون مالكاً له فيصرفه فى أغراضه الخاصة ، وإما أن يكون ملكاً له فيصرفه فى مصلحة ملكه ، وهذه حال النبى الملك كداود وسليمان .

قال تعالى : ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ (٢٠٩) أى أعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، ونبينا كان عبداً رسولاً لا يعطى إلا من أمر بإعطائه ، ولا يمنع إلا من أمر بمنعه، فلم يكن يصرف الأموال الا فى عبادة الله وطاعة له .

ومنها: أن النبى لا يورث ولو كان ملكاً ، فإن الأنبياء لا يورثون ، فإذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكاً كما يملك الناس أموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذى هو عبد رسول مالكاً .

ومنها : أن النبى ﷺ كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ،

---

(٢٠٩) سورة ص الآية : ٣٩ .

ويصرف سائر المال فى طاعة الله لا يستفضله ، وليست هذه حال الملاك ، بل المال الذى يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى أن الله أمر رسوله أن يصرف ذلك المال فى طاعته ، فتجب طاعته فى قسمه ، كما تجب طاعته فى سائر ما يأمر به ؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وهو فى ذلك مبلِّغ عن الله .

والأموال التى كان يقسمها النبى ﷺ على وجهين :

منها : ما تعين مستحقه ومصرفه كالمواريث .

ومنها : ما يحتاج الى اجتهاده ونظره ورأيه ، فإن ما أمر الله به منه ما هو محدود بالشرع : كالصلاة الخمس ، وطواف الأسبوع بالبيت ، ومنه ما يرجع فى قدره الى اجتهاد المأمور، فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التى يحبها الله .

فمن هذا ما اتفق عليه الناس ، ومنه ما تنازعوا فيه ، كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات : هل هى مقدرة بالشرع؟ أم يرجع فيها الى العرف ، فتختلف فى قدرها وصفتها باختلاف أحوال الناس ؟ . وجمهور الفقهاء على القول الثانى ، وهو الصواب لقول النبى ﷺ لهند :

« خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » (٢١٠) .

وقال أيضاً : فى خطبته المعروفة :

---

(٢١٠) حديث « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » أخرجه البخارى فى صحيحه ٣٦/٣، ١٩٣/٦. ومسلم فى صحيحه ١٣٣٨/٢. والنسائى فى سننه ٨/ ٢٤٦. وابن ماجة فى سننه برقم ٢٢٩٣ .

« للنساء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف » (٢١١) .

وكذلك تنازعوا أيضاً فيما يجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف؟

فما أضيف إلى الله والرسول (٢١٢) من الأموال كان المرجع فى قسمته إلى أمر النبي ﷺ؛ بخلاف ما سمى مستحقوه كالمواريث ، ولهذا قال النبى ﷺ عام حنين :

« ليس لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » (٢١٣) .

أى : ليس له بحكم القسم الذى يرجع فيه الى اجتهاده ونظره الخاص الا الخمس، ولهذا قال : « وهو مردود عليكم » بخلاف أربعة أخماس الغنيمة ، فإنه لمن شهد الوقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخمس يرفع الى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا رسول الله ﷺ فى أمته ، فيقسمونها بأمرهم ، فأما أربعة الأخماس فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتى المستفتى، وكما كانوا فى الحدود لمعرفة الأمر الشرعى .

---

(٢١١) حديث « للنساء كسوتهن ونفقتهن » أخرجه مسلم فى صحيحه ٨٨٦/١ . وأبو داود فى سننه برقم ١٩٠٥ .

(٢١٢) فى ج « والرسل » .

(٢١٣) حديث « ليس لى مما أفاء الله عليكم » أخرجه الحاكم فى المستدرك ٦١٦/٣. وأبو داود فى سننه برقم ٢٦٩٤، ٢٧٥٥. والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٣٩/٦.

والنبى ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم ؛ فقيل : إن ذلك كان من الخمس ؛ وقيل : أنه كان من أصل الغنيمة ؛ وعلى هذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ، ولهذا أجاب من عتب من الأنصار بما أزال عتبه ، وأراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنيمة قبل القسمة لم يملكها الغانمون؛ وأن للإمام أن يتصرف فيها باجتهاده، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع.

فإن المقصود هنا بيان حال العبد المخلص (٢١٤) لله الذى يعبده ويستعينه ، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٢١٥). توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية ؛ وان كانت الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الإلهية فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما فى قوله :

﴿ قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس ﴾(٢١٦).

وفى قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢١٧). فجمع بين الاسمين : اسم الإله واسم الرب . فإن « الإله » هو المعبود الذى يستحق أن يعبد، و«الرب» هو الذى يرب عبده فيدبره.

---

(٢١٤) فى أ ، ب « المحض» .
(٢١٥) سورة الفاتحة الآية : ٥ .
(٢١٦) سورة الناس الآية : ١ ـ ٣ .
(٢١٧) سورة الفاتحة الآية ٢ .

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسم الله [٢١٨]، والسؤال متعلقاً باسم الرب[٢١٩]. فإن العبادة هى الغاية التى لها خلق الخلق ، والإلهية هى الغاية ، الربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ، والمصلى اذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [٢٢٠] . فبدأ بالمقصود الذى هو الغاية على الوسيلة التى هى البداية ، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها ، تلك حكمة وهذا سبب ، والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف .

ولهذا يقال : أول الفكرة آخر العمل ، وأول البغية آخر الدرك .

فالعلة الغائية متقدمة فى التصور والإرادة وهى متأخرة فى الوجود، فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء ، وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته فيقول :﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [٢٢١]

ولما كانت العبادة متعلقة باسم الله تعالى[٢٢٢] جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان، الله أكبر، الله أكبر. ومثل الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله[٢٢٣] ومثل التشهد: «التحيات لله» ومثل التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير:

---

(٢١٨) فى ج « باسمه الله »

(٢١٩) فى ج « باسمه الرب » .

(٢٢٠) سورة الفاتحة الآية : ٥ .

(٢٢١) سورة الفاتحة الآية ٥ .

(٢٢٢) فى ج « باسمه الله تعالى ».

(٢٢٣) « أشهد أن محمداً رسول الله » ساقطة من أ ، ب .

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر [٢٢٤].

وأما السؤال فكثيراً ما يجئ باسم الرب كقول آدم وحواء :

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [٢٢٥].

وقول نوح : ﴿ رب إنى أعوذ بك أن اسألك ما ليس لى به علم ﴾[٢٢٦]

وقول موسى : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾ [٢٢٧].

وقول الخليل : ﴿ ربنا إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ الآية [٢٢٨].

وقوله مع إسماعيل : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ [٢٢٩].

وكذلك قول الذين قالوا : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ [٢٣٠] ومثل هذا كثير.

وقد نقل عن مالك أنه قال : أكره للرجل أن يقول فى دعائه :

---

(٢٢٤) فى ج « لا إله إلا الله ، الله أكبر » .

(٢٢٥) سورة الأعراف الآية : ٢٣

(٢٢٦) سورة هود الآية : ٤٧.

(٢٢٧) سورة القصص الآية : ١٦

(٢٢٨) سورة إبراهيم الآية : ٣٧.

(٢٢٩) سورة البقرة الآية : ١٢٧

(٢٣٠) سورة البقرة الآية : ٢٠١

ياسيدى ، ياسيدى ، ياحنان ، يامنان (٢٣١) ، ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء : ربنا ، ربنا ، نقله عنه العتبى فى العتيبة .

وقال تعالى : عن أولى الألباب : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ الآيات (٢٣٢) .

فإذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب . وإن سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسناً ، وأما إذا سبق الى قلبه قصد العبادة . فاسم الله أولى بذلك ، إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله ، واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب(٢٣٣) .

ولهذا قال يونس : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ (٢٣٤) .

وقال آدم : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢٣٥) .

فإن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً .

قال تعالى: ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾(٢٣٦)

---

(٢٣١) فى ج «ياحنان، يا حنان» .
(٢٣٢) سورة آل عمران الآية : ١٩١ .
(٢٣٣) فى ج «وإذا قصد الدعاء باسم الرب»
(٢٣٤) سورة الأنبياء الآية : ٨٧ .
(٢٣٥) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .
(٢٣٦) سورة القلم الآية : ٤٨ .

وقال تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ [٢٣٧] .

ففعل ما يلام عليه، فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه، والاعتراف بأنه لا إله إلا هو ، فهو الذى يستحق أن يعبد دون غيره، فلا يطاع الهوى، فإن اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده.

وقد روى أن يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلهم ، وخاف أن ينسبوه الى الكذب فغاضب، وفعل ما اقتضى الكلام الذى ذكره الله تعالى، وأن يقال ﴿ لا إله الا أنت ﴾ [٢٣٨] وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الإلهية، سواء صدر ذلك عن هوى النفس ، أو طاعة الخلق، أو غير ذلك .

ولهذا قال : ﴿ سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [٢٣٩] .

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق ، وفيما يريده وهو غير حسن .

وأما آدم عليه السلام، فانه اعترف أولاً بذنبه فقال: ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به . مما يزاحم الإلهية [٢٤٠] بل ظن صدق الشيطان الذى :

﴿ قاسمهما إنى لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور ﴾[٢٤١].

---

(٢٣٧) سورة الصافات الآية : ١٤٢ .

(٢٣٨) فى ج «لا إله إلا الله» .

(٢٣٩) فى أ «سواء قدر ذلك» .

(٢٤٠) فى أ « ما يزاحم الآلهية »

(٢٤١) سورة الأعراف الآية : ٢١ ، ٢٢ .

فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا فى قبول غروره ، وما أظهر من نصحه حالهما مناسباً لقولهما: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾(٢٤٢) لما حصل من التفريط، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلهية ، وكانا محتاجين إلى أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما ، حتى لا يغترا بمثل ذلك ، فهما يشهدان حاجتهما الى الله ربهما الذى لا يقضى حاجتهما غيره .

وذو النون شهد ما حصل من التقصير فى حق الإلهية بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك ، ففى ذلك من المعارضة فى الفعل لحب شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله ، وتألهه له ، وأن يقول : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ (٢٤٣) فإن قول العبد : لا إله إلا أنت ، يمحو أن يتخذ إلهه هواه .

وقد روى : « ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » (٢٤٤) .

فكمل يونس صلوات الله عليه تحقيق إلهيته لله ، ومحو الهوى

---

(٢٤٢) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .

(٢٤٣) سورة الأنبياء الآية : ٨٧ .

(٢٤٤) حديث « ما تحت أديم السماء إله يعبد ...» أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٨/ ١٢٣. وابن أبى عاصم فى السنة ٨/١.
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٨٨/١ وقال: « فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث» وابن الجوزى فى الموضوعات ١٣٩/٣. وابن عراق فى تنزيه الشريعة ٣٠٣/٢. والشوكانى فى الفوائد المجموعة ٢٣٦. والسيوطى فى اللآلئ المصنوعة ١٧٣/٢ . والفتنى فى تذكرة الموضوعات ١٧٢، والسيوطى فى الدر المنثور ٧٢/٥.

الذى يتخذ إلهاً من دونه ، فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ إرادة تزاحم إلهية الحق ، بل كان مخلصاً لله الدين ، إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين .

وأيضاً فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه نوع مغاضبة للقدر . ومعارضة له فى خلقه وأمره ، ووساوس فى حكمته ورحمته، فيحتاج العبد أن ينفى عنه شيئين: الآراء الفاسدة، والأهواء الفاسدة ، فيعلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته لا فيما اقتضاه علم العبد وحكمته ، ويكون هواه تبعاً لما أمر الله به ، فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوى يخالف ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾(٢٤٥) .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » رواه أبو حاتم فى صحيحه (٢٤٦) .

وفى الصحيح : ان عمر قال له : يارسول الله ، والله لانت أحب إلىّ من نفسى .

قال : « الآن يا عمر » (٢٤٧) .

---

(٢٤٥) سورة النساء الآية : ٦٥ .

(٢٤٦) حديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم ...» أخرجه البغوى فى شرح السنة ٢١٣/١.

(٢٤٧) حديث « أن عمر قال له : يارسول الله ..». أخرجه البخارى فى صحيحه ٢١٨/٧.

وفى الصحيح : عنه ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢٤٨) .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ (٢٤٩) .

فإذا كان الإيمان لا يحصل حتى يحكِّم العبد رسوله ويسلم له ، ويكون هواه تبعاً لما جاء به ، ويكون الرسول والجهاد فى سبيله مقدماً على حب الإنسان نفسه وماله وأهله . فكيف فى تحكيمه الله تعالى والتسليم له ؟ فمن رأى قوماً يستحقون العذاب فى ظنه ، وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله ، وإما عن ظن يخالف علم الله ، والله عليم حكيم .

وإذا علمت أنه عليم(٢٥٠) ، وأنه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه ، وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلقه ، ولم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه .

فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات: كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا ان نطيعه فى أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائه إياهم من

---

(٢٤٨) حديث « لا يؤمن أحدكم حتى أكون ....» أخرجه البخارى فى صحيحه ٩/١، ومسلم فى صحيحه ٦٧/١.

(٢٤٩) سورة التوبة الآية : ٢٤.

(٢٥٠) « أنه عليم » ساقطة من أ، ب .

العذاب فإن هذا من مفعولاته التى لم يأمرنا أن نكرهها، بل هى مما يحبها فإنه يحّب التوابين ويحب المتطهرين، فكراهة هذا[٢٥١] من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلهية [٢٥٢]. فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول : لا إله إلا أنت .

فعلينا أن نحب ما يحب، ونرضى بما يرضى، ونأمر بما يأمر، وننهى عما ينهى. فإذا كان ﴿ يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾[٢٥٣] فعلينا أن نحبهم؛ ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه[٢٥٤] .

والكلام فى هذا المقام مبنى على أصل : وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الايمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [٢٥٥] .

وقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ [٢٥٦] .

---

(٢٥١) فى أ « فكراهية هذا ».
(٢٥٢) فى أ « المزاحم للإلهية »
(٢٥٣) سورة البقرة الآية : ٢٢٢.
(٢٥٤) فى ج « المخالقة لمحابه ».
(٢٥٥) سورة البقرة الآية : ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢٥٦) سورة البقرة الآية : ١٧٧ .

وقال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ (٢٥٧) .

بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ، ولو كانوا أولياء الله ، ولهذا من سب نبياً من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب غيرهم لم يقتل، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هى التى يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ؛ فإن «النبى» هو المنبىء عن الله و «الرسول» هو الذى أرسله الله تعالى ، وكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً ، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة ، فلا يستقر فى ذلك خطأ باتفاق المسلمين .

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته ؟

هذا فيه قولان : والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك . والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة فى سورة النجم بقوله : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهم (٢٥٨) لترتجى.

وقالوا : إن هذا لم يثبت ، ومن علم أنه ثبت : قال هذا ألقاه الشيطان فى مسامعهم (٢٥٩) ولم يلفظ به الرسول ﷺ ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً ، وقالوا فى قوله :

---

(٢٥٧) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .

(٢٥٨) فى أ « شفاعتها »

(٢٥٩) فى أ « فيما معهم » وقد نبه مصححه على هذا الخطأ .

﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ [٢٦٠]؛ هو: حديث النفس.

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا : هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[٢٦١] .

فقالوا : الآثار فى تفسير هذه الآية معروفة ثابتة فى كتب التفسير والحديث، والقرآن يوافق ذلك ، فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع فى آياته ، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها ، وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض . والقاسية قلوبهم إنما يكون اذا كان ذلك ظاهراً [٢٦٢] يسمعه الناس ، لا باطناً فى النفس ، والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ [٢٦٣]من جنس الفتنة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

---

(٢٦٠) سورة الحج الآية : ٥٢.
(٢٦١) سورة الحج الآية : ٥٢ ـ ٥٤ .
(٢٦٢) فى ج « إذا كان ظاهراً »
(٢٦٣) « من النسخ » سقطت من أ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه ، وكلاهما من عند الله، وهو مصدق فى ذلك، فإذا قال عن نفسه(٢٦٤) أن الثانى هو الذى من عند الله وهو الناسخ، وأن ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق ، وهذا كما قالت عائشة رضى الله عنها :

«لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية :

﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾(٢٦٥).

ألا ترى أن الذى يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ، ولو كان خطأ، فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته، ونسخ ما ألقاه الشيطان، وهو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب، وهذا هو المقصود بالرسالة، فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليماً ، ولهذا كان تكذيبه كفراً محضاً بلا ريب . .

وأما العصمة فى غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع : هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون فى العصمة من الكبائر

---

(٢٦٤) فى أ « من نفسه » .

(٢٦٥) حديث « لو كان محمد كاتماً شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه ١٧٥/٨ . ومسلم فى صحيحه ١٦٠/١ . والترمذى فى سننه برقم ٣٢٠٧ . والإمام أحمد فى المسند ٢٤١/٦ . والآية رقم ٣٧ من سورة الأحزاب .

والصغائر، أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هى فى الإقرار عليها(٢٦٦) لا فى فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا فى التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟ والكلام على هذا مبسوط فى غير هذا الموضع.

والقول الذى عليه جمهور الناس، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً، والرد على من يقول أنه يجوز إقرارهم عليها، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول.

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسى بهم مشروع، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز(٢٦٧) كون الأفعال ذنوباً، ومعلوم أن التأسى بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه(٢٦٨) ورجعوا عنه. [كما أن الأمر والنهى إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه](٢٦٩). فأما ما نسخ من الأمر والنهى فلا يجوز جعله مأموراً به، ولا منهياً عنه، فضلاً عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافى الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم

---

(٢٦٦) فى ج «إنما هى الإقرار عليها»

(٢٦٧) فى أ «إلا من تجويز».

(٢٦٨) «عنه» سقطت من أ.

(٢٦٩) مابين المعقوفتين ساقط من ج.

الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة .

وقال آخر : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

وقد ثبت فى الصحاح : حديث التوبة : «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً**»(٢٧٠) إلخ ..

وقد قال تعالى: ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾(٢٧١).

وقال تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ (٢٧٢).

وقد ثبت فى الصحيح : حديث الذى يعرض الله صغار ذنوبه ويخبيء عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر ، فيقول الله له: « **إنى قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: أى رب إن لى سيئات لم أرها** » (٢٧٣).

---

(٢٧٠) حديث « لله أفرح بتوبة عبده من رجل ». أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٦/٧. ومسلم فى صحيحه ٢١٠٤/٣. والبيهقى فى «السنن الكبرى ١٨٨/١٠. والبغوى فى شرح السنة ١٢٤/٦. وأورده الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ٥٧١/٨. وانظر: سنن الترمذى حديث رقم ٣٥٣٨.

(٢٧١) سورة البقرة الآية : ٢٢٢.

(٢٧٢) سورة الفرقان الآية : ٧٠.

(٢٧٣) حديث « إنى قد غفرتها لك وأبدلتك..». أخرجه مسلم فى صحيحه ١٧٧/١. والإمام أحمد فى المسند ١٥٧/٥. والترمذى فى سننه برقم ٢٥٩٦.

فإذا [٢٧٤] رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقاً منها أن تظهر، ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة .

وقد قال تعالى : ﴿ **وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيمًا** ﴾ [٢٧٥] .

فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم .

وفى الكتاب، والسنة الصحيحة، والكتب التى أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات» ونصوص «القدر» ونصوص «المعاد» وهى من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التى يعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكلم[٢٧٦] عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع فى الكفر بهم .

---

(٢٧٤) فى ج « إذا رأى » .

(٢٧٥) سورة الأحزاب الآية : ٧٣.

(٢٧٦) فى أ « الكلام ».

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع، وهى «العصمة فى التبليغ» لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء، وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه، أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، والعصمة التى كانوا ادعوها لوكانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم. فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به. فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله. ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذى تحصل به السعادة ، وبضده تحصل الشقاوة :

قال تعالى: ﴿ فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾ الآية(٢٧٧)

والله تعالى لم يذكر فى القرآن شيئاً من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته:

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢٧٨)

وقول نوح: ﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ (٢٧٩).

وقول الخليل عليه السلام : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٢٨٠)

---

(٢٧٧) سورة النور الآية : ٥٤.
(٢٧٨) سورة الأعراف الآية : ٢٣.
(٢٧٩) سورة هود الآية : ٤٧.
(٢٨٠) سورة إبراهيم الآية : ٤١.

وقوله: ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٢٨١].

وقول موسى: ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ﴾[٢٨٢].

وقوله : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾ [٢٨٣].

وقوله : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾[٢٨٤] .

وقوله تعالى عن داود : ﴿ فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [٢٨٥].

وقوله تعالى عن سليمان: ﴿ رب اغفر لى، وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى، إنك أنت الوهاب ﴾[٢٨٦].

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبًا ، فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار. بل قال :

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [٢٨٧]

---

(٢٨١) سورة الشعراء الآية : ٨٢ .
(٢٨٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٥، ١٥٦.
(٢٨٣) سورة القصص الآية : ١٦.
(٢٨٤) سورة الأعراف الآية : ١٤٣.
(٢٨٥) سورة ص الآية : ٢٤ ، ٢٥ .
(٢٨٦) سورة ص الآية : ٣٥.
(٢٨٧) سورة يوسف الآية : ٢٤.

فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء.

وأما قوله : ﴿ ولقد هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بها ، لولا أن رأى برهان ربه ﴾ (٢٨٨)

فالهمُّ اسم جنسٍ تحته نوعان كما قال الإمام أحمد: الهم هَمَّان: هَمُّ خطرات ، وهمُّ إصرار.

وقد ثبت فى الصحيح: عن النبى ﷺ : « إن العبد إذا همّ بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة » (٢٨٩)

وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة.

ويوسف ﷺ همّ همّاً تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه ، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهو الهمّ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾(٢٩٠).

---

(٢٨٨) سورة يوسف ، الآية : ٢٤ .

(٢٨٩) حديث « إن العبد إذا هم بسيئة...» أخرجه البخاري فى صحيحه ١٨٧/٧. ومسلم فى صحيحه ١١٨/١، والإمام أحمد فى المسند ٣٦١/١، والبيهقي في شعب الإيمان حديث رقم ٣٢٨. وابن منده في الإيمان حديث رقم ٣٨٠.

(٢٩٠) سورة الأعراف الآية : ٢٠١.

وأما ما ينقل : من أنه حلّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، ومالم يكن كذلك؛ فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفًا واحداً .

وقوله : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ (٢٩١)

فمن كلام امرأة العزيز، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى: ﴿ وقال الملك ائتونى به، فلما جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم، قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ (٢٩٢).

فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك فى السجن، لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه؛ ولكن لما ظهرت

---

(٢٩١) سورة يوسف الآية : ٥٣.

(٢٩٢) سورة يوسف الآية : ٥٠ ـ ٥٣.

براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيبِ ﴾ أي : لم أخنه في حال مغيبه عني ، وإن كنت في حال شهوده راودته ـ فحينئذ :

﴿ قال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ (٢٩٣) .

وقد قال كثير من المفسرين أن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد (٢٩٤)، ولا دليل عليه ؛ بل الأدلة تدل على نقيضه (٢٩٥)، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا : أن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدَّله الله به حسنات ، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع.

قال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك و لا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾(٢٩٦)

وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال : ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ (٢٩٧) .

---

(٢٩٣) سورة يوسف الآية : ٥٤.

(٢٩٤) في أ « الفصاد » خطأ

(٢٩٥) في أ « على نقضه»

(٢٩٦) سورة القلم الآية : ٤٨ـ٥٠.

(٢٩٧) سورة الصافات الآية : ١٤٢.

فأخبر أنه فى تلك الحال مُليم ، و« المُليم » الذى فعل ما يُلام عليه ، فالملام فى تلك الحال لا فى حالَ نبذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ﴾ أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى فى البداية، والأعمال بخواتيمها.

والله تعالى خلق الإنسان ، وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، ثم علّمه، فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء فى حال النهاية حالهم أكمل الأحوال.

ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين ، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ؛ ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ، ورضى الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (٢٩٨) .

فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال فى مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب .

---

(٢٩٨) سورة الرعد الآية : ٢٣ ، ٢٤.

ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة، ثم مضغة ، ثم حين نفخت فيه الروح، ثم هو وليد (٢٩٩) ، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر؛ فعلم أن الواحد فى هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التى يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل، عند حصول الكمال.

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم؛ ليس بصواب ؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى (٣٠٠) لله فى عاقبته كان أفضل. فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم، هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم ؛ بل من عرف الشرّ وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه (٣٠١) فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له، ومعرفته بالشر وبغضه له؛ أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما (٣٠٢) كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشرّ فلا يعرف أنه شرٌّ، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذى عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما تُنقض عُرى الإسلام عُروةً عُروةً إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

---

(٢٩٩) فى أ « ثم وليد ».
(٣٠٠) فى أ « وأيها كان أنقى ».
(٣٠١) « ثم عرف الخير وذاقه » سقط من أ.
(٣٠٢) في أ « وتذقهما ».

وهو كما قال عمر :

فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد فى سبيل الله . ومَنْ نشأ فى المعروف لم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره[٣٠٣] ما عند من علمه، ولا يكون عنده [من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم، ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده][٣٠٤] من الاحتراز عنه، ومنع أهله، والجهاد لهم؛ ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم ، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير ، وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان[٣٠٥] والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصى ، ولهذا يوجد منْ ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك .

ولهذا يقال : وَالضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقال : وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأشْيَاءُ

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لست بِخبٍّ ، ولا يخدعنى الخبُّ .

فالقلب السليم المحمود هو الذى يريد الخير لا الشر، وكمال

---

(٣٠٣) فى أ « وضرورة ».

(٣٠٤) ما بين المعقوفتين ساقط من أ.

(٣٠٥) فى أ « حسن حال الإيمان ».

ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما مَنْ لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقاً؛ فإن هذا ليس بمطّرد؛ بل قد يكون الطبيبُ أعلم بالأمراض من المرضى، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان، فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس.

ولكن المراد أن من الناس من يحصل له، بذوقه الشرّ من المعرفة به، والنفور عنه، والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل: مَنْ كان مشركاً، أو يهودياً، أو نصرانياً، وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح الله صدره للإسلام، وعرّفه محاسن الإسلام، فإنه قد يكون أرغب فيه، وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام، بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا، أو مقلّد في مدح هذا وذم هذا.

ومثال ذلك: مَنْ ذاق طعم(٣٠٦) الجوع، ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده، فإنّ محبّة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع، ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يبتل بذلك، ولم يعرف حقيقته.

---

(٣٠٦) في أ «وأمثال ذلك من ذاك طعم».

وكذلك مَنْ دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بيّن الله له الحقّ وتاب عليه توبة نصوحاً، ورزقه الجهاد فى سبيل الله، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم، وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حماد الخزاعى وكان شديداً على الجهمية : أنا شديد عليهم ، لأنى كنت منهم.

وقد قال الله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾(٣٠٧)

نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم، فهاجروا إلى الله ورسوله ، وجاهدوا وصبروا.

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام فلما (٣٠٨) أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام، وكان بعض من سبقهما (٣٠٩) دونهما فى الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله، وكان عمر لكونه أكمل إيماناً وإخلاصاً وصدقاً ومعرفة وفراسة ونوراً ؛ أبعد عن هوى النفس، وأعلى همة فى إقامة دين الله، مقدماً على سائر المسلمين، غير أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين.

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

---

(٣٠٧) سورة النحل الآية : ١١٠.

(٣٠٨) « فلما أسلما » ساقط من أ.

(٣٠٩) « بعض من سبقهما » ساقط من أ.

وما يذكر فى الإسرائيليات : « إن الله قال لداود: أما الذنب فقد غفرناه ، وأما الود فلا يعود »

فهذا لو عُرفت صحته لم يكن شرعاً لنا وليس لنا أن نبنى (٣١٠) ديننا على هذا، فإن دين محمد ﷺ فى التوبة جاء بما لم يجئ به شرع من قبله.

ولهذا قال : « أنا نبى الرحمة، وأنا نبى التوبة » (٣١١).

وقد رُفِعَ به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا.

وقد قال تعالى فى كتابه : ﴿ ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (٣١٢).

وأخبر أنه تعالى يفرح بتوبة عبده(٣١٣) التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس. فإذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته، كيف يقال: أنه لا يعود لمودته : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد ﴾(٣١٤)

ولكن وده وحبُّه بحسب ما يتقرب إليه العبد بعد التوبة، فإن كان ما يأتى به من محبوبات الحق بعد التوبة أفضل مما كان يأتى به

---

(٣١٠) فى أ : «نبين»

(٣١١) حديث « أنا نبى الرحمة وأنا نبى التوبة » جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ١٨٢٨/٢.

(٣١٢) سورة البقرة الآية : ٢٢٢.

(٣١٣) «عبده » سقطت من أ.

(٣١٤) سورة البروج الآية : ١٤ ـ ١٦.

قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، وإن كان أنقص كان الأمر أنقص، فإن الجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد.

وقد ثبت فى الصحيح: عن النبى ﷺ أنه قال:

« يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولايزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها : فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » (٣١٥).

ومعلوم أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبة ومودة، وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم وودهم.

وقد قال تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ﴾ (٣١٦)

نزلت فى المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل «أهل الأحزاب»

---

(٣١٥) حديث « يقول الله تعالى : من عادى لى...» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٩٠/٧.

(٣١٦) سورة الممتحنة الآية : ٧.

كأبى سفيان بن حرب، وأبى سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية، وغيرهم. فإنهم [٣١٧] بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة، وكانوا فى ذلك متفاضلين.

وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودةً من أبى سفيان بن حرب ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح:

أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت : « والله يارسول الله، ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهلِ خبائك، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك» فذكر النبى ﷺ لها نحو ذلك [٣١٨].

ومعلوم أن المحبة والمودة التى بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم لله تعالى ، فإن أوثق عرى الإيمان الحب فى الله، والبغض فى الله، فالحب لله من كمال التوحيد، والحب مع الله شرك.

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله و الذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ [٣١٩]

فتلك المودة التى صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين

---

(٣١٧) فى أ « وأنهم ».

(٣١٨) حديث « أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية... » أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٣٢/٤، ٢٢٠/٧. ومسلم فى صحيحه ١٣٣٩/٢.

(٣١٩) سورة البقرة الآية : ١٦٥.

عادوهم من المشركين إنما كانت مودة لله ومحبة لله، ومن أحب الله أحبه الله ، ومن ود الله وده الله ، فعلم أن الله أحبهم وودهم بعد التوبة، كما أحبوه وودوه ، فكيف يقال : إن التائب إنما تحصل له المغفرة دون المودة؟

وإن قال قائل: أولئك كانوا كفاراً ، ولم يعرفوا أن ما فعلوه محرم، بل كانوا جهالاً، بخلاف من علم أن الفعل محرم وأتاه.

قيل: الجواب من وجهين :

أحدها : أنه ليس الأمر كذلك، بل كان كثير من الكفار يعلمون أن محمداً رسول الله، ويعادونه حسداً وكبراً، وأبو سفيان قد سمع من أخبار نبوة النبي ﷺ ما لم يسمع غيره، كما سمع من أمية بن أبي الصلت، وما سمعه من هرقل ملك الروم ، وقد أخبر عن نفسه أنه لم يزل موقناً أن أمر النبي ﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليه الإسلام وهو كاره له ، وقد سمع منه عام اليرموك وغيره ما دل على حسن إسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة.

وقد قال تعالى: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ (٣٢٠).

فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات، فالحسنات توجب مودة الله لهم، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصاً بمن كان كافراً.

---

(٣٢٠) سورة الفرقان الآية : ٦٨ ـ ٧٠ .

وقد قال تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾[٣٢١]

قال أبو العالية : سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقالوا لى : كل مَنْ عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

الوجه الثانى : أن ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله تعالى للتائبين فرق لا أصل له، بل الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين، ويفرح بتوبة التائبين، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنبًا أو لم يكونوا عالمين بذلك.

ومن علم أن ما أتاه ذنب ثم تاب فلا بد أن يبدّل وصفُه المذموم بالمحمود ، فإذا كان يبغض الحق فلا بد أن يحبّه، وإذا كان يحبّ الباطل فلا بد أن يبغضه.

فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محابّه، فكل مَنْ كان أعظم فعلاً لمحبوب الحق كان الحق أعظم محبة له، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ماكان عليه من الباطل. وقوة حب ما انتقل إليه من حب الحق ، فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه، بل يبدل الله سيئاته حسنات؛ لأنه بدّل صفاته المذمومةَ بالمحمودة فيبدّل الله سيئاته حسنات، فإن الجزاء من جنس العمل، وحينئذ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره

(٣٢١) سورة النساء الآية : ١٧.

كانت محبة الحق له أعظم، وإذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، فكيف يقال : الود لا يعود .

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: أن الله لا يَبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال أنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً، وإن تاب التائب منها، وهذا منشأ غلطهم فمن ظنّ أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً ، فإن الذم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلاً، لكن إن قدّم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخّر التوبةَ فقد يلحقه مابين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة، بل يسارعون إليها، ويسابقون إليها ، لايؤخّرون ولا يصرُّون على الذنب بل هم معصومون من ذلك، ومن أخّر ذلكَ زمناً قليلاً كفَّر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذى النون ﷺ هذا على المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة ، وأما مَنْ قال إن إلقاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع فى الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل ، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله فى الفضيلة، وقد أخبر الله عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾(٣٢٢)
فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام ثم أرسله الله تعالى إلى قوم لوط.

وقد قال تعالى فى قصة شعيب : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علمًا على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (٣٢٣)

وقال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ (٣٢٤)

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار، ولا بد لكل عبد من التوبة وهى واجبة على الأولين والآخرين ، كما قال تعالى :

﴿ ليعذب الله المنافقين و المنافقات والمشركين و المشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورًا رحيمًا ﴾(٣٢٥)

وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومَنْ بعدهما إلى خاتم

(٣٢٢) سورة العنكبوت الآية : ٢٦.
(٣٢٣) سورة الأعراف الآية : ٨٨ ، ٨٩ .
(٣٢٤) سورة إبراهيم الآية : ١٣ ، ١٤.
(٣٢٥) سورة الأحزاب الآية : ٧٣.

المرسلين محمد ﷺ وآخر ما نزل عليه ـ أو من آخر ما نزل عليه ـ قوله تعالى :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابًا ﴾ (٣٢٦)

وفى الصحيحين : عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده « سبحانَكَ اللّهمَّ ربَّنا وبحمدِكَ اللّهمَّ اغفرْ لِى » (٣٢٧) يتأول القرآن.

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك: ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد مَا كادَ يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾(٣٢٨)

وفى صحيح البخارى: عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (٣٢٩) .

---

(٣٢٦) سورة النصر بأكملها.

(٣٢٧) حديث « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ... » أخرجه البخارى فى صحيحه ١٩٩/١ ، ٩٣/٦. ومسلم فى صحيحه ٣٥٠/١. والإمام أحمد فى المسند ٤٣/٦، ٤٩، ١٩٠ . وأبو داود فى سننه برقم ٨٧٧ و النسائى فى سننه ٢١٩/٢.

(٣٢٨) سورة التوبة الآية : ١١٧ .

(٣٢٩) حديث « يا أيها الناس توبوا الى ربكم ... » أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٥/٧. والبغوى فى شرح السنة ٧١/٥. وانظر : اتحاف السادة المتقين ٥٠٥/٨، ٥٠٦، ٥١٧.

وفي صحيح مسلم : عن الأغر المزني عن النبي ﷺ أنه قال : « إنّه ليغانُ على قلبي. وانّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة » (٣٣٠) .

وفي السنن : عن ابن عمر أنه قال: كنا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول : « رَبِّ اغْفِرْ لي وتُبْ عليَّ إنَّك أنتَ التَّواب الغفُور » مائة مرة (٣٣١) .

وفي الصحيحين : عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللّهمَّ اغْفر لي خَطيئتِي وجَهْلِي وإسرَافِي في أمرِي، وما أنتَ أعلم به مني، اللّهم اغْفر لِي هَزْلِي وجِدِّي وخطئي وعَمَدِي وكل ذلك عندي ، اللّهم اغفرْ لِي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أنتَ أعلمُ به منِّي . أنت المُقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ ، وأنت على كلِّ شيء قديرٌ » (٣٣٢)

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله أرأيت سكوتَكَ بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : أقول : « اللّهم باعِدْ بَيْني وبَيْنَ خَطَايايَ كما باعَدْتَ بينَ المَشْرِقِ والمغربِ ، اللّهمَّ

---

(٣٣٠) حديث « إنه ليغان على قلبي ... » أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٧٥/٢.

(٣٣١) حديث « رب اغفر لي وتب عليّ... » أخرجه الترمذي في سننه برقم ٣٤٣٤. وأبو داود في سننه برقم ١٥١٦. وابن ماجة في سننه برقم ٣٨١٤.

(٣٣٢) حديث « اللهم اغفر لي خطيئتي ... » أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٦/٧. ومسلم في صحيحه ٢٠٨٧/٣.

نقِّنى من خَطَاياىَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنس ، الّلهم اغْسلنى مِنْ خطاياى بالثَّلْجِ والبَرَد والماء البارد » (٣٣٣)

وفى صحيح مسلم ، وغيره أنهَ كان يقول نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع .

وفى صحيح مسلم ، عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعاء الاستفتاح:

« اللهم أنتَ المَلكُ لا إله إلا أنت، أنتَ ربِّى وأنا عبدُكَ ، ظلمتُ نفْسى وعملتُ سوءًا فاغفرْ لِى ، فإنه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ ، واهْدِنى لأحسنِ الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنتَ ، واصْرِفْ عنى سَيِّئها لا يصرفُ عنِّى سيِّئها إلاَّ أنت » (٣٣٤)

وفى صحيح مسلم: عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى سجوده: « اللهم اغْفِرْ لِى ذَنبِى كُلَّه دِقَّه وجِلَّه ، علانيتَه وسرّه ، أوّله وآخره » (٣٣٥) .

وفى السنن : عن على أن النبى ﷺ أتى بدابة ليركبها وأنه حمد الله وقال : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون ﴾

---

(٣٣٣) حديث « اللهم باعد بينى وبين خطاياى .. » أخرجه البخارى فى صحيحه ١٨٠/١ ، ومسلم فى صحيحه ٤١٩/١. وأبو داود فى سننه برقم ٧٨١.

(٣٣٤) حديث « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت » سبق تخريجه ، انظر هامش رقم (٥٥).

(٣٣٥) حديث « اللهم اغفر لى ذنبى ».. أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٥٠/١.

ثم كبره وحمده ثم قال : « سُبْحَانَكَ ظلمت نفسي فاغْفرْ لِي فانه لا يَغْفرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، ثم ضحك ، وقال : إن الربَّ يعجبُ من عبده إذا قال اغفر لي ، فإنه لا يغفرُ الذُّنوب إلا أنت، يقول : عَلِمَ عبدي أنه لا يغفرُ الذُّنوب الاَّ أنا » (٣٣٦) .

وقد قَال تعالى: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾(٣٣٧)

وقال : ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾(٣٣٨)

وثبت في الصحيحين : في حديث الشفاعة: « إن المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »(٣٣٩)

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان يقوم حتى تَرِم قدماه ، فيقال له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخر؟ قال: « أفلا أكون عبداً شكوراً » (٣٤٠) .

---

(٣٣٦) حديث « سبحانك ظلمت نفسي ... » أخرجه الترمذي في سننه برقم ٣٤٤٦. وأبو داود في سننه برقم ٢٦٠٢. والحاكم في المستدرك ٩٨/٢، ٩٩. والبيهقي في السنن الكبرى ٢٥٢/٥.

(٣٣٧) سورة محمد الآية : ١٩.

(٣٣٨) سورة الفتح الآية : ١، ٢.

(٣٣٩) حديث « إن المسيح يقول : اذهبوا ... » جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٣/٨. ومسلم في صحيحه ١٨٠/١. والطيالسي في مسنده ٢٦٨. وابن منده في الإيمان ٨٠٩/٣. وغيرهم.

(٣٤٠) حديث « أن النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه، فيقال له.. » أخرجه البخاري في صحيحه ٤٤/٦.

ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار فى ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة.

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية، كما فعل ذلك من صنّف فى هذا الباب. وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾(٣٤١) المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته ، وهذا معلوم البطلان ، ويدل على ذلك وجوه :

أحدها : أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذى أنزل الله فيه هذه السورة قال تعالى: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾(٣٤٢)

وقال : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٣٤٣) .

وقد ذكر أنه قال : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٣٤٤) .

والثانى : أن يقال : فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع ، فإنه نبى أيضاً ، ومن قال : إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

---

(٣٤١) سورة الفتح الآية : ٢ .

(٣٤٢) سورة طه الآية : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣٤٣) سورة البقرة الآية : ٣٧ .

(٣٤٤) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .

الوجه الثالث : إن الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله، فإنه هو القائل: ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (٣٤٥) .

فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما . وقد قال تعالى : ﴿ فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾(٣٤٦)

وقال تعالى: ﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾(٣٤٧)

ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم .

ويقال: إن قوله: ﴿ ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾(٣٤٨)

المراد ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك ، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم، وقال :

« أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وآدم فمن دونه تحت لوائى يوم القيامة، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ، وإمامهم إذا اجتمعوا »(٣٤٩)

وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له . فإن قال : إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل : وهو أيضاً لم يغفر ذنوب جميع أمته.

---

(٣٤٥) سورة فاطر الآية : ١٨ .

(٣٤٦) سورة النور الآية : ٥٤.

(٣٤٧) سورة النساء الآية : ٨٤.

(٣٤٨) سورة الفتح الآية : ٢.

(٣٤٩) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ... » انظر : صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب ٣ . وسنن الترمذى رقم ٣١٤٨، ٣٦١٥. ومسند الإمام أحمد ٢٨١/١، ٢/٣. وشرح السنة ١٧٨/٤.

الوجه الرابع : أنه قد ميَّز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ (٣٥٠) .

فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له ؟

الوجه الخامس : أنه ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة : يارسول الله، هذا لك فما لنا فأنزل الله : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ﴾ (٣٥١) .

فدلّ ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (٣٥٢) مختص به دون أمته.

الوجه السادس : أن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته، بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه، إما فى الدنيا، وإما فى الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل، وأخبر به الصادق المصدوق، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وشوهد فى الدنيا من ذلك ما لا يحصيه الا الله.

وقد قال الله تعالى: ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ﴾ (٣٥٣) .

والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل. فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول ، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب .

□□□

(٣٥٠) سورة محمد الآية : ١٩.

(٣٥١) حديث « يارسول الله هذا لك فما لنا ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه ٦٦/٥. ومسلم فى صحيحه ١٤١٣/٢. والترمذى فى سننه برقم ٣٢٦٣. والآية رقم ٤ من سورة الفتح.

(٣٥٢) سورة الفتح الآية : ٤.

(٣٥٣) سورة النساء الآية : ١٢٣.

فصل

هل الاعتراف بالخطيئة يوجب كشف الضر؟

وأما قول السائل: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها، أم يحتاج إلى شيء آخر؟

فجوابه : أن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ، فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة، كما قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(٣٥٤) في موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور، وبدون التوبة معلق بالمشيئة .

كما قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا ﴾ (٣٥٥) .

فهذا في حق التائبين، ولهذا عمم وأطلق ، وحتم أنه يغفر الذنوب جميعاً، وقال في تلك الآية: ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٣٥٦) .

فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة، فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة، وأما ما دونه فيغفره الله للتائب ، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء.

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد إن كان متضمناً للتوبة أوجب

---

(٣٥٤) سورة النساء الآية : ٤٨.

(٣٥٥) سورة الزمر الآية : ٥٣.

(٣٥٦) سورة النساء الآية : ٤٨.

المغفرة ، وإذا غفر الذنب زالت عقوبته، فإن المغفرة هى وقاية شر الذنب.

ومن الناس مَنْ يقول الغَفْرُ : الستر ، ويقول : إنما سمى المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفّار بأنه الستار ، وهذا تقصير فى معنى الغفر ، فإن المِغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب، فَمنْ غُفِرَ ذنبه لم يعاقب عليه، وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن، ومن عوقب على الذنب باطناً أو ظاهراً فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب.

وأما إذا ابتلى مع ذلك بما يكون سبباً فى حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافى المغفرة.

وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتى بحسنات يفعلها ، فإن ما يشرط فى التوبة من تمام التوبة ، وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائباً بل يكون تاركاً ، والتارك غير التائب ، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه، أو تنتفى إرادته له بسبب غير دينى ، وهذا ليس بتوبة . بل لا بد من أن يعتقد أنه سيّئة ، ويكره فعله لنهى الله عنه، ويدعه لله تعالى ، لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق ، فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره.

كما قال الفضيل بن عياض فى قوله:

﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (٣٥٧) قال : أخلصُه وأصوبُه.

---

(٣٥٧) سورة الملك الآية : ٢.

قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقْبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر.

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا فى نفس الاستغفار المجرد الذى لا توبة معه، وهو كالذى يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له، فإنه داع دعوة مجردة .

وقد ثبت فى الصحيحين : عن النبى ﷺ أنه قال :

« ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ إلا كان بينَ إحدى ثلاث : إما أن يُعجَّلَ له دعوته، وإما أن يُدخَّر له من الجزاء مثلها ، وإما أن يصرِف عنه من الشرّ مثلها ».

قالوا : يارسول الله ، إذاً نكثر . قال : « الله أكثر » (٣٥٨) .

(٣٥٨) حديث « مامن داع يدعو بدعوة... » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١٨/٣، بلفظ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر . قال : الله أكثر »، وأخرجه البخارى فى صحيحه ١٥١/٧ . ومسلم فى صحيحه ٢٠٩٥/٢، بمعناه وليس بلفظه.

فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة ، وإذا لم تحصل ، فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء.

وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذّابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة أو يدّعى أن استغفاره توبة ، وأنه تائب بهذا الاستغفار ، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائبًا ، فإن التوبة والإصرار ضدان : الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة.

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة ، أم لا بد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبنى على أصول :

أحدهما : أن التوبة تصحُّ من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضى للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضى للتوبة من الآخر، أو كان المانع من أحدهما أشدّ ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف.

وذهب طائفة من أهل الكلام كأبى هاشم إلى أنّ التوبة لا تصحُّ من قبيح مع الإصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها، وحكى القاضى أبو يعلى ، وابن عقيل هذا رواية عن أحمد، لأن المروذى ، نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لو مرضت لم أعُدْ لكن لا يدع النظر، فقال أحمد: أى توبة ذه؟

قال جرير بن عبد الله : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: « اصرِفْ بصرَكَ » (٣٥٩)

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة، وأحمد فى هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً، لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافى ذلك، وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضاً أولى من حمله على التناقض ، لاسيما إذا كان القول الآخر مبتدعاً لم يعرف عن أحد من السلف، وأحمد يقول : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول ما لم يقل ؟

واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك، وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة.

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم.

فجوابه أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه.

وأيضاً فقد يعلم قبحها ، ولكن هواه يغلبه فى أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض ، فإن ذلك يقبل منه.

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم ،

---

(٣٥٩) حديث « اصرف نظرك » أخرجه مسلم فى صحيحه ١٦٩٩/٢.
و الترمذى فى سننه ٢٧٧٦.

وإن خالفوهم فى الاسم، فقالوا : إن أصحاب الكبائر يخلّدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه، ولهذا يقولون : بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة.

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم، وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ، ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغى بها رضا الله أثابه الله على ذلك، وإن كان مستحقاً للعقوبة على كبيرته.

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق ، والزانى ، وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً ، وبين حكم الكفار فى الأسماء والأحكام، والسنة المتواترة عن النبى ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع.

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله: ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾(٣٦٠)

فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً ، فلم يأت كبيرة.

وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك، فجعلوا أهل الكبائر داخلين فى اسم « المتقين » .

---

(٣٦٠) سورة المائدة الآية : ٢٧.

وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله، فمن اتقاه فى عمل تقبله منه ، وإن كان عاصياً فى غيره، ومن لم يتّقه فيه لم يتقبله منه، وإن كان مطيعاً فى غيره.

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً فى صحة المفعول ، كالإيمان المشروط فى غيره من الأعمال.

كما قال الله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ (٣٦١)

وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾(٣٦٢).

وقال : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٣٦٣)

الأصل الثانى : أن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض، فإن التوبة إنما تقتضى مغفرة ما تاب منه ، أما ما لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لم يتب ، ولا على حكم من تاب ، وما علمت فى هذا نزاعاً إلا فى الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذى تاب منه .

---

(٣٦١) سورة الإسراء الآية : ١٩.

(٣٦٢) سورة النحل الآية : ٩٧.

(٣٦٣) سورة البقرة الآية : ٢١٧.

وهل تُغفرُ له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الإسلام ؟

هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما : يغفر له الجميع ، لإطلاق قوله ﷺ: « الإسلام يهدم ما كان قبله » رواه مسلم (٣٦٤)

مع قوله تعالى :﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (٣٦٥) .

والقول الثانى : أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه. فإذا أسلم وهو مصرّ على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر.

وهذا القول هو الذى تدل عليه الأصول والنصوص.

ففى الصحيحين : أن النبى ﷺ قال له حكيم بن حزام : يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : « منْ أحسن منكم فى الإسلام لم يُؤاخَذْ بما عمِل فى الجاهلية، ومنْ أساء فى الإسلام أُخِذ بالأول والآخر » (٣٦٦) .

---

(٣٦٤) حديث « الإسلام يهدم ما كان قبله » أُخرجه مسلم فى صحيحه ١١٢/١ .

(٣٦٥) سورة الأنفال الآية : ٣٨ .

(٣٦٦) حديث « من أحسن منكم فى الإسلام ...» أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٩/٨. ومسلم فى صحيحه ١١١/١. وابن ماجة فى سننه برقم ٤٢٤٢. والإمام أحمد فى المسند ٣٧٩/١، ٤٣١، ٤٦٢. وابن منده فى الإيمان ٤٩٦/٢. والدارمى فى سننه ٢/١ وعبد الرزاق فى مصنفه ١٠ / ٤٥٤. والحميدى فى مسنده ٦١/١.

فقد دلّ هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى: ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (٣٦٧)

يدل على أن المنتهى عن شيء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على أن المنتهى عن شيء يغفر له ما سلف من غيره، وذلك لأن قول القائل لغيره : إن انتهيت غفرت لك ما تقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند الإطلاق أنك إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله: « إن تبت » ، لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره.

وأما قول النبى ﷺ : « الإسلام يهدم ما قبله » وفى رواية « يجُبُّ ما كان قبله » فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « ياعمرو ، أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها » (٣٦٨) .

ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

---

(٣٦٧) سورة الأنفال الآية : ٣٨.

(٣٦٨) حديث «يا عمرو ، أما علمت أن الإسلام ...» سبق تخريجه، انظر هامش رقم (٣٦٤)

الأصل الثالث: أن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها ، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور .

والندم سواء قيل: أنه من باب الاعتقادات، أو من باب الإرادات، أو قيل : أنه من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها؛ فإذا استشعر القلب أنه فعل ما يضره، حصل له معرفة بأن الذى فعله كان من السيئات، وهذا من باب الاعتقادات، وكراهية لما كان فعله، وهو من جنس الإرادات؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله؛ وهذا من باب الآلام، كالغموم والأحزان، كما أن الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والإرادات.

ومنْ قال من المتفلسفة ومنْ اتبعهم : إن اللذة هى إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وإن الألم هو إدراك المنافر من حيث هو منافر فقد غلط فى ذلك. فإن اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر، فإن الحب لما يلائمه، كالطعام المشتهى مثلاً له ثلاثة أحوال:

أحدها : الحب، كالشهوة للطعام .

و الثانى : إدراك المحبوب ، كأكل الطعام .

و الثالث : اللذة الحاصلة بذلك ، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهى ؛ بل هى حاصلة لذوق المشتهى ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكذلك المكروه : كالضرب مثلاً . فإن كراهته شيء ، وحصوله

شيء آخر، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ما للعارفين أهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك ؛ فإن حبهم لله شيء ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء ، ثم اللذة الحاصلة بذلك أمر ثالث ، ولا ريب أن الحب مشروط بشعور المحبوب، كما أن الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط فى اللذة غير الشعور المشروط فى المحبة ، فهذا الثانى يسمى إدراكاً وذوقاً ونيلاً ووجداً ووصالاً ، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب ، سواء كان بالباطن أو الظاهر ، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة أمر يحسه الحى باطناً وظاهراً.

وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: « ذاق طعم الإيمان من رضِى باللهِ ربًا، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً » (٣٦٩)

وفى الصحيحين : عنه ﷺ أنه قال : « ثلاثٌ منْ كُنّ فيه وجد بهِنّ حلاوة الإيمان: منْ كان اللهُ ورسُولهُ أحبّ إليه مِن سواهما، ومنْ كان يُحبُّ المرء لا يُحبهُّ إلا لله، ومن كان يكره أَن يرجع فى الكُفر بعد إِذ أنْقذهُ الله منه كما يَكره أن يُلقى فى النار » (٣٧٠)

---

(٣٦٩) حديث « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ...» أخرجه مسلم فى صحيحه ٦٢/١. والترمذى فى سننه برقم ٢٦٢٣. والإمام أحمد فى المسند ٢٠٨/١. وابن منده فى كتاب الإيمان ٢٥٠/١، و أبو نعيم فى «حلية الأولياء» ٢٥٦/٩. والبغوى فى شرح السنة ٥٣/١. والبيهقى فى شعب الإيمان ١٩٥ . وكذلك فى كتاب الأسماء والصفات برقم ٤ .

(٣٧٠) حديث « ثلاث من كن فيه وجد بهن ...» أخرجه البخارى=

فبيّن ﷺ أن ذوق طعم الإيمان لمن رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ، وإنّ وجد حلاوة الإيمان حاصل لمن كان حبُّه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، ومن كان يحبُّ شخصاً لله لا لغيره، ومن كان يكره ضدّ الإيمان، كما يكره أن يلقى فى النار، فهذا الحب للإيمان، والكراهية للكفر استلزم حلاوة الإيمان، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الإيمان، وهذا هو اللذة، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة فى القلب، ولا نفس الحب الحاصل فى القلب، بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له، وهى أمور متلازمة، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق، وإلا فمن أحب شيئاً ولم يذق منه شيئاً لم يجد لذة، كالذى يشتهى الطعام ولم يذق منه شيئاً ، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة، كمن ذاق ما لا يريده ، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك.

وإن حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم ، فالذى يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم ، والذى لا يبغضه لايندم على فعله، فإذا فعله وعرف أن هذا مما يبغضه ويضرُّه ندم على فعله إياه . وفى المسند: عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: « الندمُ توبةٌ »(371).

= فى صحيحه ٩/١ ، ٥٦/٨. ومسلم فى صحيحه ٦٦/١. والإمام أحمد فى المسند ١٠٣/٣. والترمذى فى سننه برقم ٢٦٢٤. وابن منده فى الإيمان ٢٨١. والنسائى فى سننه ٩٧/٨. والطبرانى فى الكبير ٧٢٤. وأبو يعلى برقم ٣٢٧٩. وابن المبارك فى الزهد برقم ٨٢٧. وأبو نعيم فى الحلية ٣٩٠/٨.

(٣٧١) حديث « الندم توبة ... » أخرجه الإمام أحمد فى المسند =

إذا تبيّن هذا ، فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ، لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل فى التوبة ، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته.

وأما التوبة المطلقة : وهي أن يتوب توبةً مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ، ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين،كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع ، بخلاف العامة ، فإنها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً.

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب لله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش ، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين

= ٣٧٦/١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، والحاكم فى المستدرك ٢٤٣/٤ ، وابن ماجه فى سننه برقم ٤٢٥٢. والبيهقى فى السنن الكبرى ١٥٤/١٠ . والحميدى فى مسنده ١٠٥ والطبرانى فى الصغير ٣٣/١. وأبو نعيم فى الحلية ٢٥١/٨، ٣١٢. والخطيب فى تاريخه ٤٠٥/١. والشجرى فى أماليه ١٩٥/١، ١٩٦.

حقاً، أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحبّ الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية.

حتى ثبت في الصحيح: أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل يُدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان كلما أُتي به إلى النبي ﷺ جلده الحدّ، فلما كثر ذلك منه أُتي به مرّة فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبي ﷺ: « **لا تلعنْه فإنه يُحِبُّ الله ورسوله** » (٣٧٢).

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة « **لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها** » (٣٧٣)

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذى قام به ما يمنع خوف اللعنة له.

وكذلك التكفير المطلق، والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق فى الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا

---

(٣٧٢) حديث « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله...» أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤/٨.

(٣٧٣) حديث «لعن الخمر وعاصرها». أخرجه أبو داود فى سننه ٣٦٧٤. وأحمد فى المسند ٩٧/٢. والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٢٧/٥. والحاكم فى المستدرك ٣٣/٢. و الطبرانى فى الصغير ٢٦٦/١. وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨٩/٤، ٧٢/٥. والمنذرى فى الترغيب والترهيب ٢٤٩/٣. والزبيدى فى الإتحاف ١٥٠/٦. والتبريزى فى المشكاة ٢٧٧٧.

يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته ، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التى هى جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة - لكنها من عقوبات الدنيا - وكذلك ما يحصل فى البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل فى عرصات القيامة، وتزول أيضاً بدعاء المؤمنين : كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيّد الشفعاء محمد ﷺ تسليماً.

وحينئذ فأىّ ذنب تاب منه ارتفع موجبه ، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التى لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه ، بخلاف ما لم يتب منه ، بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس فى غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم الى ذلك، فإن التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال؛ لأنه دائماً يظهر له ما فرّط فيه من ترك مأمور ، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائماً، والله أعلم.

وأما قول السائل : ما السبب فى أن الفرج يأتى عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟

وما الحيلة فى صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟

فيقال: سبب هذا تحقيق التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية.

فتوحيد الربوبية : أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقل شىء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه، إذا قدر سبباً فلابد له من شريك معاون وضد معوق، فإذا

طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور .

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً، بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الربُّ بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى:

﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (٣٧٤)

وقال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا ، يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابًا أليمًا ﴾ (٣٧٥) .

وقال : ﴿ فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ (٣٧٦) .

والراجى لمخلوقٍ طالبٌ بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق ، وذلك المخلوق عاجز عنه، ثم هذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم

---

(٣٧٤) سورة التكوير الآية : ٢٨، ٢٩ .

(٣٧٥) سورة الإنسان الآية : ٢٩ ــ ٣١ .

(٣٧٦) سورة المدثر الآية : ٥٥، ٥٦ .

بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، ثم إن وحّده العبدُ توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة.

وإن كان ممن قيل فيه : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائمًا ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مَسَّهُ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾(٣٧٧)

وفى قوله تعالى: ﴿ و إذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً ﴾ (٣٧٨) .

كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ، ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له .

قال تعالى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾(٣٧٩)

وقال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأنى يؤفكون ﴾(٣٨٠)

---

(٣٧٧) سورة يونس الآية : ١٢.

(٣٧٨) سورة الإسراء الآية : ٦٧ .

(٣٧٩) سورة المؤمنون الآية : ٨٤ ـ ٨٩.

(٣٨٠) سورة العنكبوت الآية : ٦١.

وهذا قد ذكر فى القرآن فى غير موضع.

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزّل بهم الشدة والضرّ وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه ، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه. والبراءة من الشرك ماهو أعظم نعمةً عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب ، أو حصول اليسر وزوال العسر فى المعيشة، فإن ذلك لذّات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن.

وأماَ ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفضيله بال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه.

ولهذا قال بعض السلف: يابن آدم، لقد بورك لك فى حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

وقال بعض الشيوخ : إنه ليكون لى إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لى من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتى خشية أن تنصرف نفسى عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها ، فإذا قضى انصرفت .

وفى بعض الإسرائيليات : يابن آدم ، البلاء يجمع بينى وبينك ، والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

وهذا المعنى كثير، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمن الا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك.

ولفظ « الذوق » وإن كان قد يُظنُّ أنه فى الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل فى الإحساس بالملائم والمنافر.

كما أن لفظ « الإحساس » فى عرف الاستعمال عام فيما يُحسُّ بالحواس الخمس ، بل وبالباطن.

وأما فى اللغة فأصله « الرؤية » كما قال : ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ (٣٨١) .

و المقصود : لفظ « الذوق »

قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ (٣٨٢)

فجعل الخوف والجوع مذوقاً؛ وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللابس؛ بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع.

وقال تعالى : ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم ﴾ (٣٨٣)

وقال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (٣٨٤)

وقال تعالى : ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ (٣٨٥)

وقال تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾ (٣٨٦)

(٣٨١) سورة مريم الآية : ٩٨.
(٣٨٢) سورة النحل الآية : ١١٢.
(٣٨٣) سورة الصافات الآية : ٣٨.
(٣٨٤) سورة الدخان الآية : ٤٩.
(٣٨٥) سورة القمر الآية : ٤٨.
(٣٨٦) سورة الدخان الآية : ٥٦.

وقال تعالى: ﴿ لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا ﴾ (٣٨٧)

وقال : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾ (٣٨٨)

وقد قال النبى ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا » (٣٨٩) .

فاستعمال لفظ « الذوق » فى إدراك الملائم والمنافر كثير .

وقال النبى ﷺ: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » كما تقدم ذكر الحديث (٣٩٠) .

فوجود المؤمن حلاوة الإيمان فى قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق ، أصحابه فيه يتفاوتون ، فالذى يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين ، لا يحبون شيئاً إلا له ، ولايتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه

---

(٣٨٧) سورة النبأ الآية : ٢٤، ٢٥.

(٣٨٨) سورة السجدة الآية : ٢١.

(٣٨٩) حديث « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا...» سبق تخريجه، انظر هامش (٣٦٩).

(٣٩٠) حديث « ثلاث من كن فيه وجد ...» سبق تخريجه ، انظر هامش (٣٧٠)

ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى؛ قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه ، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب. وهذا هو حقيقة الإسلام الذى بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه. والله سبحانه وتعالى أعلم .

***

المحتويات

صفحة

ايداع رقم ٩٥/٤٥٦٥ دولى رقم ٤ ـ ١٩٧ ـ ٢٦٠ ـ ٩٧٧

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـــ الفجالة
جمهورية مصر العربية ـــ تليفون : ٥٩٠٤٣٤٣

من أدعية تفريج الكروب

- اللهم إنى عبدك وابن عبدك ، ماض في حكمك عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو إستأثرت به فى مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، وجلاء همى وغمى.

- لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ، أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين .

- اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني الى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت.

مكتبة التراث الإسلامي
ت : ٣٩١١٣٩٧٠ ـ ٣٩٢٥٦٧٧ ـ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦